الجماعة رحمة
والفرقة عذاب

جمع وترتيب

أبو أحمد سيد عبد العاطي بن محمد الذهبي

غفر الله له ولوالديه ولزوجه وولده وللمسلمين والمسلمات

حقوق الطبع محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة

الحمد لله الذي تحيَّرت دون صمديَّته الألباب، وانقطعت عن كبريائه الأنساب، وخضعت لعزته الرقاب، وذلت لربوبيته الأرباب، وأثبتَ ما قدَّره في أم الكتاب.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لا ندّ له فيبارى، ولا معارض له فيجارى، ولا مناوئ له في علو شأنه فيدارى، الأول فله الخلق والأمر، والآخر فإليه الرجوع يوم الحشر، والظاهر فله الحكم والقهر، والباطن يعلم السر والجهر، فالألسن عن وصف كبريائه قاصرة، والأعين عن دلائل قدرته باصرة.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، رسول حلّ من رُبَى النبوة أعلاها فعلاها، وحمل من أعباء الرسالة إدَّها فاضطجع بها وأداها، فجلا الله به عن البصائر رينها وعن الأبصار غشاها، صلى الله عليه وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين، وعلى أصحابه الغرّ المحجلين، وعلى التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، وارضى اللهم عنا معهم أجمعين.

أما بعد؛

فإن من قواعد الدين العظام، وأموره الجسام، التي دلّت عليها الأدلّة، وأكدت عليها الملة؛ وجوب ائتلاف أهل الإسلام، والنهي عن تفرقهم وتحزبهم، والسعي إلى تحقيق هذا الأصل والعمل على تيسير السبل الموصّلة إليه ما أمكن، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا الأصل العظيم: وهو الاعتصام بحبل الله جميعاً وأن لا يُتفرق هو أعظم أصول الإسلام، ومما عظمت وصية الله تعالى به في كتابه، ومما عظم ذمّه لمن تركه من أهل الكتاب

وغيرهم، ومما عظمت به وصية النبي ﷺ في مواطن عامة وخاصة».

هذا ولقد نظمت جمعية الشباب المسلمين بمسجد «السنة» مدينة زولتسباخ إقليم السارلند – ألمانيا – دورة علمية بعنوان «الجماعة رحمة والفرقة عذاب» وكانت تتكون من ثمان وقفات إيمانية بين يدي هذا الأصل وهو «الأخوة الإيمانية».

فأشار علينا بعض الإخوة الأفاضل أن تسطر في رسالة كي يعم بها النفع فاستجبت لطلبهم وسطرت هذه الرسالة بعنوان «الجماعة رحمة والفرقة عذاب» وهي عبارة عن ثمان وقفات:

*** الوقفة الأولى: الأمر بالجماعة والنهي عن الفرقة.**

*** الوقفة الثانية: كلمة التوحيد أساس الاجتماع.**

*** الوقفة الثالثة: نواقض كلمة التوحيد.**

*** الوقفة الرابعة: السنة المطهرة والحث على الجماعة.**

*** الوقفة الخامسة: أهل السنة وضوابط الاجتماع.**

*** الوقفة السادسة: خطورة الفرقة.**

*** الوقفة السابعة: أسباب الاختلاف.**

*** الوقفة الثامنة: صور رائعة للأخوة الصادقة.**

ومن الله يُرجى الهدي والرشاد، ويُستلهم السداد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

كتبه

أبو أحمد سيد عبد العاطي بن محمد الذهبي

غفر الله له ولوالديه ولزوجه وولده وللمسلمين والمسلمات.

الوقفة الأولى:
الأمر بالجماعة والنهي عن الفرقة

فاعلم أخي -رحمني الله وإياك- أن الجماعة قوة ونصر والفرقة ضعف وهزيمة، فعليك بالجماعة وإياك والفرقة، فالمتدبر لنصوص الوحيين القرآن والسنة يجد الكثير من النصوص التي تأمر بالجماعة وتنهى عن الفرقة ومن هذه النصوص:

قوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ففي هذه الآية الكريمة أمرنا الله تعالى بالجماعة ونهانا عن الفرقة.

* يقول الإمام محمد بن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تأويل هذه الآية ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ وتعلقوا بأسباب ذلك جميعا يريد الله بذلك تعالى ذكره: وتمسكوا بدين الله الذي أمركم به وعهده الذي عهده إليكم في كتابه من الألفة والاجتماع على كلمة الحق والتسليم لأمر الله[١].

وذكر المفسرون من المراد بحبل الله ستة أقول: فقيل إن المراد بالحبل؛ كتاب الله القرآن، الثاني: أنه الجماعة، الثالث: أنه دين الله وهو الإسلام، الرابع: عهد الله، الخامس: أنه الإخلاص والسادس: أنه أمر الله وطاعته.

وهذا الاختلاف في تفسير «الحبل» في الآية هو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد إذ المعنى كله متقارب متداخل[٢].

---

(١) تفسير الطبري: (٤/ ٢١).

(٢) أنظر: «زاد المسير في علم التفسير» لابن الجوزي (١/ ٤٣٣) وانظر تفسير القرطبي: (٤/ ١٠٢).

ويقول الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في معنى الآية: إن الله يأمر بالألفة وينهى عن الفرقة فإن الفرقة هلكة والجماعة نجاة[١].

وقال عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لسماك الحنفي: يا حنفي الجماعة الجماعة!! فإنما هلكت الأمم الخالية لتفرقها أما سمعت الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[٢].

وهذا الأمر بالجماعة عام للأمة في كل زمان وكل مكان، هذا حالهم أن يكونوا مجتمعين بحبل الله، فالله سبحانه وتعالى أمرهم بأن يعتصموا بحبل الله جميعا، وجميعا: منصوب على الحال، أي: كونوا مجتمعين على الاعتصام بحبل الله[٣].

وفي هذه الآية وبعد أن أمرهم سبحانه بالجماعة والتمسك بها إذ به منعتهم وأمنهم، نهاهم عن الفرقة فقال: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ أي: لا تتفرقوا عن دين الله وعهده الذي عهد إليكم في كتابه من الائتلاف والاجتماع على طاعته وطاعة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والانتهاء إلى أمره[٤].

يقول عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا أيها الناس عليكم بالطاعة والجماعة فإنهما حبل الله الذي أمر به، وإن ما تكرهون في الجماعة والطاعة هو خير مما تستحبون في الفرقة[٥].

ومعنى نهيه سبحانه وتعالى عن الفرقة في قوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ أي: لا تفرقوا في دينكم كما تفرقت اليهود والنصارى في أديانهم ولا تفرقوا متابعين للهوى

---

(١) أنظر: تفسير القرطبي: (٤/ ١٠٢).

(٢) أنظر: تفسير القرطبي: (٤/ ١٠٥).

(٣) أنظر: «زاد المسير في علم التفسير» لابن الجوزي (١/ ٤٣٣).

(٤) تفسير الطبري: (٤/ ٢١).

(٥) تفسير الطبري: (٤/ ٢١)، الشريعة للآجري (١/ ٢٩٩).

والأغراض المختلفة[١].

وسوف نذكر في ثنايا الرسالة الكثير من نصوص الوحيين التي تؤكد على الجماعة وتحذر من الفرقة.

(١) تفسير القرطبي: (٤/ ١٠٣).

الوقفة الثانية:
كلمة التوحيد أساس الاجتماع

ومن خلال أقوال العلماء يتبين لنا المنهج الصحيح الذي يؤدي إلى اجتماع كلمة المسلمين وتآلفهم فإننا نلاحظ العبارة الدقيقة التي استعملها الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال: «والاجتماع على كلمة الحق» فإنه بدون هذا الضابط لا يكون الاجتماع صحيحا.

فلا بد من أن يكون أساس الاجتماع هو الحق وكلمة الحق وهذه الكلمة غالبا ما تطلق على كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» ولازمتها «محمد رسول الله» وذلك على فهم السلف الصالح لها بمراعاة شروطها، ولوازمها، وحقيقتها ومعناها الصحيح مع معرفة نواقضها للاحتراز منها.

*** شروط كلمة التوحيد «لا إله إلا الله»:**

كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» ولازمتها «محمد رسول الله» من أجلها خلق الله الخلق، ومن أجلها خلق الجنة والنار، وبسببها تنقسم الخليقة إلى مؤمنين وكفار وإلى أبرار وفجار وهي حق الله على العبيد فالله تعالى ما خلق الخلق إلا ليعبدوه وبالتوحيد يفردوه.

وهذه الكلمة العظيمة لها سبعة شروط لقبولها عند الله عَزَّ وَجَلَّ يوم القيامة مذكورة في هذه الأبيات:

وبـــشروط ســـبعة قـــد قيـــدت ** وفي نـصوص الـوحي حقـا وردت

فإنـــــه لم ينتفـــــع قائلهـــــا ** بـــالنطق إلا حيـــث يـــستكملها

العلـــم واليقـــين والقبـــول ** والانقيـــاد فـــادْرِ مـــا أقـــول

والـــصدق والإخـــلاص والمحبـــة ** وفقـــــك الله لمـــــا أحبـــــه

وقد زاد بعض أهل العلم شرطا ثامنا وهو الكفر بما يعبد من دون الله وقد أحسن من جمعها في هذين البيتين فقال:

علـــمٌ يقـــينٌ وإخـــلاصٌ وصـــدقك ** مـــع محبـــةٍ وانقيـــاد والقبـــول لهـــا

وزيـــدت فيهـــا الكفـــران منـــك بـــما ** ســـوى الإلـــه مـــن الأشـــياء قـــد أُلِّهـــا

وهذه الشروط المذكورة هي:

الأول: العلم المنافي للجهل والدليل قوله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴾ [محمد: ١٩].

الثاني: اليقين المنافي للشك والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥].

الثالث: القبول المنافي للرد فيجب القبول لما دلت عليه هذه الكلمة من عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه فمن قالها ولم يقبل عبادة الله وحده كان من الذين قال الله فيهم: ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ٣٦ بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [الصافات: ٣٥-٣٧].

الرابع: الانقياد المنافي للترك والدليل قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [لقمان: ٢٢].

ومعنى ﴿يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ ﴾ أي ينقاد ويخضع.

والعروة الوثقى هي: لا إله إلا الله.

الخامس: الصدق المنافي للكذب لقول النبي ﷺ: «**ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله صدقا من قلبه إلا حرمه الله على النار**»(١).

السادس: الإخلاص المنافي للشرك لقول النبي ﷺ: «**إن الله حرم على النار من قال لا إلا الله يبتغي بذلك وجهه**»(٢).

السابع: المحبة التي تناقض البغض لقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

الثامن: الكفر بما يعبد من دون الله لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٦].

*** نواقض «لا إله إلا الله»:**

النواقض جمع ناقض وهو المفسد؛ فالنواقض هي المفسدات لمعنى الشهادة، بحيث لا تترتب على نطقها واعتقادها والعمل بمدلولها، آثارها وهي الدخول في الإسلام والبراء من ضده، وعليه فإذا وجد في العبد ناقض من النواقض، فإنه لا يكون من المسلمين ولا يكتسب أحكام المسلمين، بل يعطى أحكام أهل الشرك والكفر، إن كان الناقض وجد معه ابتداء، والردة إن وجد بعد أن دخل الإسلام(٣).

---

(١) البخاري (١٢٨) ومسلم (٣٢) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٢) البخاري (٤٢٥) ومسلم (٣٣) من حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه.

(٣) المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية لإبراهيم بن محمد البريكان (ص: ١١١).

ونواقض «لا إله إلا الله» وتسمى «نواقض الإسلام» و«نواقض التوحيد» وهي الخصال التي تحصل بها الرِّدَّة عن دين الإسلام، فهي كثيرة وقد ذكر بعضهم أنها تصل إلى أربعمائة ناقض[١].

(١) الدرر السنية (١/ ١٠٠).

الوقفة الثالثة:
نواقض كلمة التوحيد

وهذه النواقض تجتمع في ثلاثة نواقض رئيسة هي:

١. الشرك الأكبر وله أنواع كثيرة:

وهو كل شرك أطلقه الشارع ويتضمن خروج الإنسان عن دينه، مثل: أن يصرف شيئا من أنواع العبادة لله ﷻ لغير الله، كأن يصلي لغير الله، أو يصوم لغير الله، أو يذبح لغير الله، وكذلك من الشرك الأكبر أن يدعو غير الله ﷻ مثل أن يدعو صاحب قبر أو يدعو غائبا لغيثه من أمر لا يقدر عليه إلا الله.

وتتلخص أنواع الشرك الأكبر في عدة أنواع:

أ- شرك الدعوة: ومعناه دعاء غير الله لكشف ضر أو جلب نفع لا يقدر عليه إلا الله، ودليله قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥] أي بعد نجاتهم يفزعون إلى أصنامهم.

ب- شرك النية: وهي الإرادة والقصد ومعناه نسيان المرء الآخرة وعدم العمل لها وأن يجعل همه وسعيه وعبادته من أجل الدنيا فقط، والدليل قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٥-١٦].

والضابط في هذا أن أصل الإرادة بالكلية للهوى والدنيا.

ج - شرك الطاعة: ومعناه طاعة العلماء أو غيرهم في تحليل ما حرم الله او تحريم ما أحل الله تعالى، كما فعل الأحبار وهم علماء اليهود وكما فعل الرهبان وهم عباد النصارى، والدليل قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ

ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

وهذا لمن اتبع مع علمه بأنهم بدلوا دين الله فيتبعونهم على التبديل، أما إن كان مجتهدا قصده اتباع الرسول لكنه خفي عليه الحق في نفس الأمر فهذا يثاب على اجتهاده.

د - **شرك المحبة**: ومعناه مساواة غير الله تعالى بالله في المحبة والدليل قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

مع التنبيه على أن المحبة قسمان: **مشتركة وخاصة**.

فالمشتركة ثلاثة أنواع:

- **أحدها: محبة طبيعية** كمحبة الجائع للطعام والظمآن للماء ونحو ذلك وهذه لا تستلزم التعظيم.
- **الثاني: محبة رحمة وإشفاق** كمحبة الوالد لولده الطفل وهذه أيضا لا تستلزم التعظيم.
- **الثالث: محبة أنس وإلف** وهي محبة المشتركين في صناعة أو علم أو مرافقة او سفر لبعضهم بعضا وكمحبة الأخوة بعضهم بعضا.

فهذه الأنواع الثلاثة التي تصلح للخلق بعضهم من بعض، ووجودها فيهم لا يكون شركا في محبة الله ولهذا كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل وكان يحب نساءه وعائشة رضي الله عنها أحب نسائه وكان يحب أصحابه وأحبهم إليه الصديق رضي الله عنه.

أما **الخاصة** وهي التي لا تصلح إلا لله ومتى أحب العبدُ بها غيره كان شركا لا يغفره الله إلا بالتوبة وهي **محبة العبودية** المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم وكمال الطاعة وإيثاره على غيره، فهذه المحبة لا يجوز تعلقها بغير الله أصلا وهي التي سوى المشركون بين الله تعالى وبين آلهتهم فيها[١].

هـ - **شرك الخوف**: ودليله قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

قال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: «يخوف المؤمنين بالكفار»[٢].

قال الشيخ سليمان آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: **الخوف على ثلاثة أقسام**:

- **أحدهما**: خوف السر وهو أن يخاف من غير الله أن يصيبه بما يشاء من مرض أو فقر أو قتل ونحو ذلك بقدرته ومشيئته، سواء ادعى أن ذلك كرامة للخوف بالشفاعة، أو على سبيل الاستقلال، فهذا الخوف لا يجوز تعلقه بغير الله أصلا لأن هذا من لوازم الإلهية فمن اتخذ مع الله ندّاً يخافه هذا الخوف فهو مشرك.

وهذا هو الذي كان المشركون يعتقدونه في أصنامهم وآلهتهم الباطلة، ولهذا يخوفون به أولياء الرحمن وهذا القسم هو الواقع اليوم من عبّاد القبور فإنهم يخافون الصالحين بل الطواغيت كما يخافون الله بل أشد ولهذا إذا توجّهت على أحدهم اليمين بالله أعطاك ما شئت من الأيمان كاذبا أو صادقا، فإن كان اليمين بصاحب القبر لم يُقدم على اليمين إن كان كاذبا، وما ذاك إلا لأنه المدفون في التراب أخوف عنده من الله، ولاشك أن هذا ما بلغ إليه شرك الأولين.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (ص٤٦٧ - ٤٦٨).

(٢) جامع البيان: (٣/ ٥٢٥).

- **الثاني**: أن يترك الإنسان ما يجب عليه من الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بغير عذر إلا الخوف من الناس فهذا محرم.

- **الثالث**: خوف وعيد الله الذي توعد به العصاة وهو الذي قال الله فيه: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤].

وقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وهذا الخوف من أعلى مراتب الإيمان وإنما يكون محمودا إذا لم يوقع في القنوط واليأس من روح الله ﷻ.

- **بقي قسم رابع: وهو الخوف الطبيعي الجبلي**

كالخوف من عدو أو سبع وهدم ونحو ذلك فهذا لا يذم وهو الذي ذكره الله قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١][(١)].

و- **الشرك في التوكل**: ودليله قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

قال الشيخ سليمان آل الشيخ: «وفي الآية دليل على أن التوكل على الله عبادة وعلى أنه فرض وإذا كان كذلك فصرفه لغير الله شرك»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أن

(١) تيسير العزيز الحميد (ص: ٤٨٤-٤٨٦) بتصرف واختصار.
(٢) تيسير العزيز الحميد (ص: ٤٩٧).

ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب، ولهذا قال سعيد بن المسيب: التوكل على الله جماع الإيمان»[١]

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «التوكل نصف الدين، والنصف الثاني الإنابة فإن الدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة والإنابة هي العبادة، ومنزلته أوسع المنازل وأجمعها، ولا تزال معمورة بالنازلين، لسعة متعلق التوكل، وكثرة حوائج العالمين، وعموم التوكل، ووقوعه من المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، والطير والوحش والبهائم»[٢].

وأما التوكل على غير الله تعالى فهو قسمان:

- **أحدهما**: التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله، كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت في رجاء مطالبهم من النصر والحفظ والرزق والشفاعة، فهذا شرك أكبر فإن هذه الأمور ونحوها لا يقدر عليها إلا الله تبارك وتعالى.
- **والثاني**: التوكل في الأسباب الظاهرة العادية كمن يتوكل على أمير أو سلطان فيما جعله الله بيده من الرزق أو دفع الأذى ونحو ذلك فهذا شرك خفي.

والوكالة الجائزة هي توكيل الإنسان في فعل مقدور عليه ولكن ليس له أن يتوكل عليه وإن وَكَّله، بل يتوكل على الله ويعتمد عليه في تيسير ما وكله فيه[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٢/ ٤٥٢).

(٢) مدارج السالكين: (٢/ ١١٣ - ١١٤).

(٣) أنظر: تيسير العزيز الحميد (ص: ٤٩٧ - ٤٩٨).

٢ـ الثاني: الكفر الأكبر: وله أنواع كثيرة أهمها:

أ- كفر التكذيب والإنكار:

وهو أن ينكر المكلَّفُ شيئا من أصول الدين أو أحكامه أو أخباره الثابتة ثبوتا قطعيا، لأن ذلك تكذيب لله ورسوله ودليله قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٨].

وذلك بأن ينكر بقلبه، أو لسانه أصلا من أصول الدين، أو حكما من أحكامه أو خبرا من أخباره المعلومة من دين الإسلام بالضرورة، والتي ورد في شأنها نص صريح من كتاب الله تعالى أو وردت في شأنه أحاديث نبوية متواترة معلومة أو أجمع أهل العلم عليها إجماعا قطعيا، أو ينكر ما يجزم هو في قرارة نفسه بأنه من دين الله تعالى.

ومثل الإنكار بالقلب واللسان؛ أن يفعل ما يدل على إنكاره شيئا من دين الله تعالى.

وقد أجمع العلماء على كفر من وقع في هذا النوع - أي كفر الجحود؛ لأنه مكذب لكلام الله تعالى وكلام رسول الله ﷺ رادٌّ لهما ولإجماع الأمة القطعي.

ومن أمثلة هذا النوع من أنواع الكفر الأكبر:

- أن ينكر شيئا من أركان الإيمان أو غيرها من أصول الدين أو ينكر شيئا مما أخبر الله عنه في كتابه أو ورد في شأنه أحاديث نبوية متواثرة وأجمع أهل العلم عليه إجماعا قطعيا؛ كأن ينكر ربوبية الله تعالى أو ألوهيته أو ينكر إسما أو صفة لله تعالى مما أُجمع عليه إجماعا قطعيا كأن ينكر صفة العلم أو ينكر وجود أحد من الملائكة المجمع عليهم كجبريل وميكائيل -عليهما السلام- أو ينكر كتابا من كتب الله المجمع عليها كأن ينكر الزبور أو التوراة أو الإنجيل أو القرآن، أو ينكر نبوة أحد من الأنبياء المجمع عليهم كأن ينكر رسالة نوح عليه السلام أو إبراهيم عليه السلام أو هود عليه السلام أو ينكر

البحث للأجساد والأرواح أو ينكر الحساب أو الجنة والنار أو ينكر نعيم القبر أو عذابه أو ينكر أن الله تعالى قدّر جمع الأشياء قبل حدوثها ومنه أن يصحح أديانا باطلة، أو لا يكفر الكافر الذي كفره الله ﷻ أو كفره رسوله ﷺ أو يقول إن الكفار لن يخلدوا في النار ومنه أن ينسب نفسه لغير دين الإسلام ومنه أن ينكر صحبة أبي بكر أو يقول بردة الصحابة أو أكثرهم أو يقول بفسقهم كلهم أو ينكر وجود الجن أو ينكر إغراق قوم نوح عليه السلام.

- أن ينكر تحريم المحرمات الظاهرة المجمع على تحريمها كالسرقة وشرب الخمر والزنى والتبرج ونحو ذلك أو يعتقد أن أحدا يجوز له الخروج عن شريعة النبي محمد ﷺ فلا يجب عليه الالتزام بأحكامها فيجوز له ترك الواجبات وفعل المحرمات أو يعتقد أن أحدا له أن يحكم بغير حكم الله تعالى أو يتحاكم إلى غير شرع الله تعالى مع التفصيل في هذه المسألة فإن اعتقد أن حكم غير الله تعالى أفضل من حكم الله كان كفرا أكبر، أو اعتقد مساواته بحكم الله أو اعتقد أنه حكم لا يصلح لهذا الزمان أما إن أقر بأن حكم الله أفضل وخير ولكنه حكَّم غيره لشهوة أو رشوة أو لدنيا فهو كفر دون كفر أي أصغر.

- أو ينكر حِلَّ المباحات الظاهرة المجمع على حلها كأن يجحد أكل لحوم بهيمة الأنعام أو ينكر حِلَّ تعدد الزوجات أو حل أكل الخبز ونحو ذلك.

- أن ينكر وجوب واجب من الواجبات المجمع عليها إجماعا قطعيا كأن ينكر وجوب ركن من أركان الإسلام أو ينكر أصل وجوب الجهاد أو أصل وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- أو ينكر سنية سنة من السنن المجمع عليها إجماعا قطعيا أونافلة من النوافل كأن ينكر شيئا من السنن الرواتب أو ينكر استحباب صيام التطوع أو حج التطوع أو صدقة التطوع ونحو ذلك.

ب - كفر الشك والظن:

وهو أن يتردد المسلم في إيمانه بشيء من أصول الدين المجمع عليها أو لا يجزم في تصديقه بخبر أو حكم ثابت معلوم من الدين بالضرورة، لأن الإيمان لابد فيه من التصديق الجازم الذي لا يعتريه شك ولا تردد ودليله قوله تعالى عن صاحب الجنتين على مائدة سورة الكهف: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٣٥-٣٨].

ومن أمثلة هذا النوع أن يشك في صحة القرآن أو يشك في ثبوت عذاب القبر، أو يتردد في أن جبريل عليه السلام من ملائكة الله تعالى أو في تحريم الخمر، أو يشك في وجوب الزكاة أو يشك في كفر الكافر أو يشك في سنية السنة الراتبة، أو يشك في أن الله تعالى أهلك فرعون بالغرق وغير ذلك من الأصول والأحكام والأخبار الثابتة المعلومة من الدين بالضرورة.

ج - كفر الإباء والاستكبار:

وهو: أن يؤمن بأصول الإسلام وأحكامه بقلبه ولسانه ولكن يرخص الانقياد بجوارحه لحكم من أحكامه استكبارا أو ترفعا عن هذا الفعل.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١-١٣].

ومن أمثلة هذا النوع أن يرفض شخص الحج تكبرا أن يحج مع الفقراء أو يمتنع عن الصلاة في المسجد كبرا لئلا يصلي بجانب العامة والفقراء ونحو ذلك.

د - كفر السب والاستهزاء:

وهو أن يستهزئ المسلم أو يسب شيئا من دين الله تعالى مما هو معلوم من الدين بالضرورة ودليله قوله تعالى: ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة: ٦٤-٦٦].

هـ - كفر البغض:

وهو أن يكره شيئا من دين الله ﷻ، وقد أجمع أهل العلم على كفر من أبغض شيئا من دين الله ﷻ، دليله قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٩].

و - كفر الإعراض:

وهو الصدود عن دين الله تعالى **وينقسم إلى قسمين:**

القسم الأول: إعراض مكفِّر: وهو أن يترك المرء دين الله ﷻ ويتولى عنه بقلبه ولسانه وجوارحه أو يتركه بجوارحه مع تصديقه بقلبه ونطق الشهادتين، وهذا القسم له ثلاث صور هي:

- الإعراض عن الاستماع لأوامر الله ﷻ كحال الكفار الذين هم باقون على أديانهم المحَرَّفة أو الذين لا دين لهم ولم يبحثوا عن الدين الحق مع قيام الحجة عليهم فهم أعرضوا عن تعلم ومعرفة أصل الدين بكسب فهم.

- الإعراض عن الانقياد لدين الحق وعن أوامر الله تعالى بعد استماعها ومعرفتها، وذلك بعدم قبولها فيترك ما هو شرط في صحة الإيمان وهذا كحال الكفار الذين دعاهم الأنبياء والرسل وغيرهم من الدعاة إلى الدين الحق أو عرفوا الحق بأنفسهم فلم يسلموا وبقوا على كفرهم.

- الإعراض عن العمل بجميع أحكام الإسلام وفرائضه بعد إقراره بقلبه بأركان الإيمان ونطقه بالشهادتين.

ودليله قوله تعالى: ﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأحقاف: ٣].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [السجدة: ٢٢].

- **القسم الثاني**: الإعراض غير المكفِّر: وهو أن يترك المسلم بعض الواجبات غير الصلاة - خلاف - ويؤدي بعضها.

تنبيه هام:

بعد بيان أنواع الكفر المخرج من الملة يجب التنبيه على حالة «**تكفير المعين**» وهي من أخطر المسائل عند أهل السنة، فقد قال أهل العلم: المسلم المعين قد يقع في نوع من أنواع الكفر ولا يحكم على هذا المسلم المعين بالكفر، وذلك لفقد شرط من شروط الحكم على المعين بالكفر أو وجود مانع من ذلك كأن يكون جاهلا، كما في قصة الذي أمر أولاد إذا مات أن يحرِّقوه ثم يجعلوا رماده في يوم شديد الريح في البحر فهو قد شك في قدرة الله على إعادة خلقه، وإليك القصة كما جاءت عند

البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**كان رجلٌ يُسْرِف على نفسه فلما حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا مُتُّ فأحْرِقوني ثم اطحنوني ثم ذَرُّوني في الريح فوالله لئن قَدَرَ علي ربي ليُعذبَنِيَّ عذابا ما عذَّبه أحدا فلما مات فُعِلَ به ذلك فأمر الله الأرض فقال: اجمعي ما فيك منه ففعلت فإذا هو قائم فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رب خَشَيْتُك فغفر له**» وقال غيره: «**مَخَافَتُك يا ربِّ**»[1].

فبسبب جهله وخوفه الشديد وقع في ذلك فغفر الله له، والجهل الذي يحذر به المسلم هو ما كان من غير كسبه أما إن كان هو المقصر عن طلب العلم ومعرفة الأحكام فهذا النوع من الجهل لا يعذر به.

ومن موانع التكفير للمعين **التأويل السائغ** الذي له وجه في العلم لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥].

وهذه من المسائل التي للعلماء فيها أقوال كثيرة واجتهادات وتفضيلات ليس هذا مقامها.

وهناك من الموانع الإكراه كما حدث مع عمار بن ياسر رضي الله عنهما عندما أكره أن يقول في النبي ﷺ ما يرضي المشركين، فنزل قول الله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

ولهذا ينبغي للمسلم أن لا يتعجل في الحكم على الشخص المعين أو الجماعة المعينة بالكفر حتى يتأكد من وجود جميع أسباب الحكم عليه بالكفر، وهذه المسألة

---

(١) صحيح البخاري: (٨/ ١٧٦).

تترك للراسخين في العلم ولا تترك للعواطف والأهواء، وإلا كانت الفتنة لأنها حكم شرعي ولابد أن تكون بدليل شرعي واضح بيِّن فلا يكون لها إلا العلماء الذين بلغوا مرتبة الاجتهاد، **لأن هذا الحكم يحتاج إلى اجتهاد من وجهين:**

- **الأول**: هو معرفة هذا القول أو الفعل الذي صدر هم هذا المكلف فيما يدخل من أنواع الكفر الأكبر أو لا.
- **الثاني**: معرفة الحكم الصحيح الذي يحكم به على هذا المكلف وهل وجدت جميع أسباب الحكم وانتفت جميع الموانع من تكفيره أم لا؟

لأن الحكم على المسلم بالكفر وهو لا يستحقه ذنب عظيم، لذلك قال رسول الله ﷺ: «**لا يرم رجل رجلا بالفسوق ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك**»[1].

ولذلك كله فإنه يجب على المسلم الذي يريد لنفسه النجاة أن لا يتعجل في إصدار الحكم على أحد من المسلمين بالكفر أو الشرك إلا بعد تثبت لأن من دخل الإسلام بيقين لا يخرج منه إلا بيقين ومن أقوال السلف: من كانت فيه تسعة وتسعون شبهة كفر وشبهة إيمان واحدة لا نكفره، لماذا لأنه من دخل الإسلام بيقين لا يخرج منه إلا بيقين. كما يجب على المسلم أن يحذر مجالسة الذين يخوضون في مسائل التكفير وهم لم يبلغوا بعد رتبة الاجتهاد نسأل الله ﷻ السلامة والعافية من مضلات الفتنة.

٣ - النفاق الأكبر:

النفاق كالكفر والشرك والفسق، درجات ومراتب؛ منها ما هو مخرج من الإسلام ومنها غير مخرج منه:

---

(١) البخاري برقم (٦٠٤٥) ومسلم برقم (٦١) من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

أولا: النفاق الأكبر؛ المخرج من الملة والموجب للخلود في الدرك الأسفل من النار:

هو إبطان الكفر في القلب وإظهار الإسلام على اللسان والجوارح ويترتب على هذا النوع ما يترتب على الكفر الأكبر من حيث انتفاء الإيمان عن صاحبه، وخلوده في جهنم، لكن المنافق أشد عذابا من الكافر، لأنه في الدرك الأسفل من النار إذا مات عليه.

والمنافق: إذا لم يظهر ما في باطنه من مخالفة الدين، وأظهر الأعمال الظاهرة من الإسلام فهو في الظاهر مسلم، وتجري عليه احكام الإسلام الظاهرة في الدنيا، ويعامل معاملة المسلمين؛ لأننا لم نؤمر بالشق عن ما في القلوب، وهذا في الأصل خارج عن نطاق وقدرة ابن أدم.

والنفاق: إذا أطلق ذكره في القرآن؛ فإن المراد به النفاق الأكبر المنافي للإيمان، بخلاف الكفر فإنه يأتي - أحيانا - بمعنى الكفر الأصغر، وكذلك الظلم والفسق والشرك، أما في السنة فقد ورد النفاق الأصغر.

والمنافقون شر وأسوأ أنواع الكفار؛ لأنهم زادوا على كفرهم الكذب والمرواغة والخداع للمؤمنين، ولذلك أخبرنا الله تعالى عن صفاتهم في القرآن بالتفصيل، ووصفهم بصفات الشر كلها، لكن لا يقع المؤمنون في حبائلهم وخداعهم،

ومن صفاتهم:

أ - الكفر وعدم الإيمان.

ب - التولي والإعراض عن حكم الله تعالى وحكم رسوله ﷺ.

ج - الاستهزاء بالدين وأهله والسخرية منهم.

د- الميل بالكلية إلى أعداء الدين ومظاهرتهم ومناصرتهم على المؤمنين والمسلمين.

ومن أنواع النفاق الكثيرة: من أظهر الإسلام وهو مكذب بما جاء به الله، أو

بعض ما جاء به الله، أو كذب الرسول ﷺ، أو بعض ما جاء به الرسول ﷺ وكمثل من لم يعتقد وجوب طاعته ﷺ، أو أبغض الرسول ﷺ أو آذى الرسول ﷺ، أو كره الانتصار لدين الرسول ﷺ، أو سر بكسر راية الدين، أو الاستهزاء والسخرية بالمؤمنين؛ لأجل إيمانهم وطاعتهم لله ﷻ ورسوله ﷺ أو التولي والإعراض عن الشرع... إلى غير ذلك من الاعتقادات الكفرية المخرجة من الملة.

وهذا الصنف من المنافقين موجودون في كل زمان ومكان.

ثانيا: النفاق الأصغر غير المخرج من الملة:

هو النفاق العملي، واختلاف السر والعلانية في الواجبات، وذلك بعمل شيء من أعمال المنافقين مع بقاء أصل الإيمان في القلب وصاحبه لا يخرج من الملة، ولا ينفى عنه مطلق الإيمان ولا مسمى الإسلام وهو متوعد بالعذاب كسائر المعاصي، دون الخلود في النار، وصاحبه ممن تناله شفاعة الشافعين بإذن الله.

وهذا النوع من النفاق مقدمة وطريق للنفاق الأكبر؛ لمن سلكه وكان ديدنه.

وأمثلة النفاق الأصغر: الكذب في الحديث، وإخلاف الوعد، وخيانة الأمانة، والفجور في الخصومة، والغدر بالعهود، وكالرياء الذي لا يكون في أصل العمل، وإظهار المودة للغير والقيام له بالخدمة مع إضمار عكسه في القلب.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خَصْلة منهنَّ كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أؤتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»[1].

(١) البخاري (٣٤) ومسلم (٥٨).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**»[١].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**آية الإيمان حبُّ الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار**»[٢].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من مات ولم يغز، ولم يحدث به نفسه، مات على شعبة من نفاق**»[٣].

وتختلف عبارات الأئمة في إيضاح هذين النوعين:

فبعض الأئمة كالإمام الترمذي، والإمام ابن العربي المالكي، والحافظ ابن كثير والحافظ ابن حجر يقسمون النفاق إلى نفاق اعتقادي وهو المخرج من الملة وإلى نفاق عملي.

قال الإمام الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ في تعليقه على حديث: «**أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خلة منهن، كانت فيه خلة من نفاق حتى يدعها، إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر**»: «إنما معنى هذا عند أهل العلم نفاق العمل، وإنما نفاق التكذيب على عهد رسول الله ﷺ هكذا روى عن الحسن البصري شيئا من هذا أنه قال: النفاق نفاقان نفاق عمل ونفاق تكذيب»[٤].

والمقصود بنفاق التكذيب أن يظهر الإسلام بلسان وجوارحه وهو مكذب بقلبه كالمنافقين على عهد رسول الله ﷺ.

---

(١) البخاري (٣٣) ومسلم (٥٩).
(٢) البخاري (١٧) ومسلم (٧٤).
(٣) خرجه مسلم (١٩١٠).
(٤) عارضة الأحوذي (١٠/ ١٠٠).

وقال الإمام ابن العربي المالكي: «النفاق هو إظهار القول باللسانى أو الفعل بخلاف ما في القلب من القول والاعتقاد. «أصوله» وهي قسمان:

- أحدهما أن يكون الخبر أو الفعل في توحيد الله وتصديقه. الثاني يكون في الأعمال، فإن كان في التوحيد كان صريحا وإن كان في الأعمال كانت معصية وكان نفاقا دون نفاق...»[١].

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «النفاق هو إظهار الخير وإسرار الشر، وهو أنواع: اعتقادي وهو الذي يخلد صاحبه في النار، وعملي وهو من أكبر الذنوب...»[٢].

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «والنفاق: لغة مخالفة الباطن للظاهر، فإن كان في الترك اعتقاد الإيمان فهو نفاق الكفر، وإلا فهو نفاق العمل، ويدخل فيه الفعل والترك وتتفاوت مراتبه»[٣].

وبعض الأئمة كالإمام ابن تيمية والإمام ابن القيم والحافظ ابن رجب يعبرون عن ذلك بتقسيم النفاق إلى الأكبر المخرج من الملة وإلى نفاق أصغر غير مخرج من الملة...

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن النفاق ما هو أكبر يكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار كنفاق عبد الله بن أبي وغير بأن يظهر تكذيب الرسول... فهذا ضرب، والنفاق الأصغر: فهو النفاق في الأعمال ونحوها»[٤].

---

(١) عارضة الأحوذي (١٠/ ١٠٠).
(٢) تفسير ابن كثير: (١/ ٤٧).
(٣) فتح الباري: (١/ ٨٩).
(٤) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٣٤ - ٤٣٥).

ويقول -أيضا-: «والنفاق كالكفر نفاق دون نفاق، ولهذا كثيرا ما يقال: كفر ينقل عن الملة، وكفر لا ينقل، ونفاق أكبر، ونفاق أصغر كما يقال: الشرك شركان أصغر، وأكبر...»[١].

وقال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان أقسام النفاق: «وهو نوعان: أكبر، وأصغر؛ فالأكبر: يوجب الخلود في النار في دركها الأسفل، وهو أن يظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وهو في الباطن منسلخ من ذلك كله مكذب له...»[٢].

وبين القولين تقارب؛ فمن حصر النفاق المخرج من الملة بالنفاق الاعتقادي فلعله قصد بذلك نفاق التكذيب، وهو أن يظهر الإيمان وهو مكذب بقلبه، أما إن كان المرء في الأصل مؤمنا بالله غير مكذب وطرأ النفاق على بعض الأعمال المتعلقة بفروع الإيمان فهذا نفاق العمل، وهناك احتمال آخر وهو أن يقصد بحصر ذلك بالنفاق الاعتقادي اقتران المكفرات العملية الصادرة من المنافقين بالجانب الاعتقادي في الغالب.

والأقرب للصواب - والله أعلم - تقسيم النفاق إلى اكبر وأصغر لسببين:

الأول: لأن النفاق الأكبر لا يختص بالجانب الاعتقادي فقط ولذلك حين ذكر القرآن صفات المنافقين ذكر منهم تنقيصهم للرسول ﷺ وسخريتهم بالمؤمنين ومناصرتهم للكفار ونحو ذلك وهذه الأمور وإن اقترنت غالبا بفساد اعتقادي إلا ذلك ليس بلازم.

---

(١) الإيمان الأوسط (ص: ٦٦).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٣٧٦)، وانظر في هذا التقسيم «الرياض النضرة» للشيخ عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ (ص: ٢٤٠)، و«جامع العلوم والحكم» لابن رجب (ص: ٤٠٣).

الثاني: ليس كل نفاق اعتقادي يخرج من الملة فقد يكون ذلك من جنس يسير الرياء ونحوه.

هذا وقد ذكر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أهم نواقص كلمة التوحيد وجعلها في عشرة نواقص ذكرها لك:

قال الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اعلم أن نواقص الإسلام عشرة:

- **الأول**: الشرك في عبادة الله تعالى والدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٧].

ومنه الذبح لغير الله كمن يذبح للجن أو للقبر.

- **الثاني**: من يجعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة ويتوكل عليهم كفر إجماعا، والدليل قوله تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر: ٣].

- **الثالث**: من لم يكفر المشركين أو شك في كفرهم أو صحح مذهبهم كفر، والدليل قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠].

- **الرابع**: من اعتقد أن غير هدى النبي ﷺ أكمل من هديه وأن حكم غيره أحسن من حكمه كالذي يفضل الطواغيت على حكمه فهو كافر، والدليل قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

- **الخامس**: من أبغض شيئا مما جاء به الرسول ﷺ ولو عمل به كفر، والدليل قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد: ٨-٩].

- **السادس**: من استهزأ بشيء من دين الرسول ﷺ أو ثوابه أو عقابه كفر، والدليل قوله تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة: ٦٤-٦٦].

- **السابع**: السحر ومنه الصرف والعطف فمن فعله أو رضي به كفر، والدليل قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

- **الثامن**: من اعتقد أن بعض الناس يسعهم الخروج عن شريعة محمد ﷺ كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى عليه السلام فهو كافر، والدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

- **التاسع**: مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين، والدليل قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

- **العاشر**: الإعراض عن دين الله، لا يتعلمه ولا يعمل به، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

قال الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ: ولا فرق في جميع هذه النواقص بين الهازل والجاد والخائف إلا المكره وكلها من أعظم ما يكون خطرا وأكثر ما يكون وقوعا فينبغي للمسلم أن يحذرها ويخاف منها على نفسه، نعوذ بالله من موجبات غضبه وأليم عقابه وصلى الله على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قلت: مع التنبيه على ضوابط تكفير المُعَيَّن التي ذكرناها عند الحديث عن أنواع الكفر الأكبر.

الوقفة الرابعة:
السنة المطهرة والحث على الجماعة

وبعد هذا البيان لضابط الاجتماع وهو الاجتماع على كلمة الحق، أي على كلمة التوحيد بشروطها وتجنب نواقضها، وقد بينا لك الشروط والنواقض، الآن نذكر ببعض النصوص النبوية التي حثت على الجماعة وحذرت من الفرقة، وتؤكد أن العصمة في وقت الفتن هو في التمسك بجماعة المسلمين فهي المخرج بإذن الله تعالى.

١- أخرج الشيخان البخاري ومسلم -رحمهما الله تعالى- من حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «**نعم**»، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «**نعم وفيه دخن**»، قلت: وما دخنه؟ قال: «**قوم يهدون بغير هدي تعرف منهم وتُنكر**». قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «**نعم دعاةٌ على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها**»، قلت: يا رسول الله صفهم لنا. قال: «**هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا**»، قلت: فما تامرني إن أدركني ذلك؟ قال: «**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**». قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «**فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك**» [(١)].

٢- وعن الحارث الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**إن الله أمر يحيى ابن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها وإنه كاد أن يُبطِئ بها. فقال عيسى: إن الله أمرك بخمس كلمات أن تعمل بها وأن تأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم، فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يُخْسَفَ بي أو**

(١) رواه البخاري (٣٦٠٦) ومسلم (١٨٤٧).

أُعَذَّبَ. فجمع الناس في بيت المقدس فامتلأ المسجد وتعدّوا على الشُّرَفِ، فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن: أولهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدا من خالص ماله بِذَهبٍ أو ورقٍ، فقال هذه داري وهذا عملي فَاعْمَلْ وأَدِّ إليّ فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده، فأيُّكم يرضى أن يكون عبده كذلك.

وإن الله أمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا تلتفتوا فإن الله يَنْصِبُ وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت.

وأمركم بالصوم فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صُرَّة فيها مِسْكٌ فكل يَعْجَبُ أو يُعْجِبُهُ ريحها، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أَسَرَهُ العدوُّ فأوثقوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال: أنا أفديه منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم.

وأمركم أن تذكروا الله فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدوُّ في أثره سراعا حتى إذا أتى على حصن حصين فأَحْرَزَ نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله»، قال النبي ﷺ: «وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن:

السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة، فإنه من فارق الجماعة قِيدَ شِبْرٍ فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع، ومن ادّعى دعوى جاهلية فإنه من جُثاء جهنم، فقال رجل: يا رسول الله وإن صلى وصام؟ قال: وإن صلى وصام فادْعُوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله»[1].

---

(١) رواه الترمذي (٢٨٦٣) وأحمد (٤/ ١٣٠) برقم (١٧٢٠٩) والحاكم (١/ ٥٨٢) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وحسنة الحافظ ابن كثير في تفسير القرآن (١/ ٨٧) والحافظ ابن حجر في «هداية الرواة» (٣/ ٤٦٤) كما أشار إلى ذلك في مقدمته وقال الشيخ الألباني في «صحيح سنن الترمذي»: صحيح.

فبهذه الكلمات الخمس التي أمرنا بها يلتئم شمل الجماعة ويستصلح المجتمع.

٣- وأخرج البخاري من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رجلاً قرأ آيةً وسمعت النبي ﷺ يقرأ خلافها فجئت به النبي ﷺ فأخبرته فعرفت من وجهه الكراهية وقال: «**كلاكما محسن ولا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا**»[١].

يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وفي هذا الحديث الحض على الجماعة والأُلفة والتحذير من الفُرقة والاختلاف»[٢].

ولقد كره رسول الله ﷺ اختلافهما لأن كلا القراءتين صحيحة حيث قال: «**كلاكما محسن**» فهو مصيب إذ قرأ ما أَقرأَه الرسول ﷺ ونهاهما عن ذلك فقال: «**ولا تختلفوا**» وعلل سبب النهي بقوله: «**فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا**».

فلما كان الاختلاف يؤدي إلى الفرقة المؤدية إلى الهلكة كرهه ﷺ ونهى عنه.

٤- وفيما أخرجه الشيخان البخاري ومسلم -رحمهما الله- قال رسول الله ﷺ: «**اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم فإذا اختلفتم فقوموا عنه**»[٣].

ففي الحديث نهي عن كل سبب يؤدي إلى الفرقة، ففي قوله: «**ما ائتلفت عليه قلوبكم**» أي: اجتمعت فاقرؤوه وأنتم مجتمعون عليه متآلفة قلوبكم متحدة، أما إن وقع الاختلاف وهو قوله: «فإذا اختلفتم» أي: من فهم معانيه عندما تُخشى عليكم الفرقة ووقوع النزاع بينكم فالواجب القيام عنه لذلك قال «فقوموا عنه» أي تفرقوا

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٤٧٦).

(٢) فتح الباري: (١٣/ ١٠٢).

(٣) البخاري (٥٠٦١) ومسلم (٢٦٦٧).

لئلا يتمادى بكم الاختلاف إلى الشر[١].

٥- وأخرج الإمام مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ من حديث عبد الله بن عمْرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «هجَّرتُ إلى رسول الله ﷺ يوما فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية فخرج علينا رسول الله ﷺ يُعْرفُ من وجهه الغضب فقال: إنما أهلك من كان قبلكم من الأمم باختلافهم في الكتاب»[٢].

٦- وأخرج الإمام مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ من حديث عوف بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**خيار أئمتكم الذين تُحبّونهم ويُحبّونكم ويُصلّون عليكم وتُصلّون عليهم وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم**» قيل: يا رسول الله أفلا ننابذهم بالسيف؟ فقال: «**لا ما أقاموا فيكم الصلاة، وإذا رأيتم من وُلاتكم شيئا تكرهونه فاكرهوا عمله ولا تنزعوا يداً من طاعة**»[٣].

٧- وفيما خرجه ابن ماجة وأحمد عن جماعة من الصحابة منهم عمر وعثمان وعلي وعبد الله بن مسعود وغيرهم أن النبي ﷺ قال: «**ثلاثٌ لا يُغَلُّ عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، والنُّصح لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**» أو مَنْ[٤].

---

(١) أنظر: «فتح الباري» (١٣/ ١٠١).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٦٦٦).

(٣) أخرجه مسلم برقم (١٨٥٥)، ومعنى يصلون: أي يدعون، أنظر صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/ ٢٤٥).

(٤) رواه ابن ماجة (٢٣٦) وأحمد (١٣٣٧٤) وقال الشيخ الألباني في «صحيح مسند ابن ماجة»: صحيح وقال شعيب الأرناؤوط محقق «المسند»: صحيح لغيره وهذا إسناد حسن والحديث روي عن جماعة من الصحابة منهم: عمر وعثمان وعلي وعبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وابن عمر وابن عباس وأبو هريرة وجبير بن مطعم والنعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وغيرهم عدة.

هذه الخصال الثلاث المذكورة في الحديث تستصلح بها القلوب، وتهذب بها النفوس، وباستشعارها وعقد القلب عليها يكون المسلم جديرا بتحصيل الثواب الجزيل والأجر العظيم وفي الحديث دلالة على أن قلب المسلم لا يحمل غلا ولا يبقى فيه الغش إذا كان متصفا بهذه الصفات الثلاثة المذكورة في الحديث، لأنها تنفي الغش وتبعده عن القلب، فالمخلص لله إخلاصه يمنع غل قلبه ويخرجه ويزيله جملة لأنه قد انصرف وراعى قلبه وإرادته إلى مرضاة ربه وطلب ثوابه فلم يبق فيه موضع للغل والغش كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

فلما أخلص لربه صرف عنه دواعي السوء والفحشاء، ولهذا لما علم إبليس أنه لا سبيل له على أهل الإخلاص استثناهم من شرطته التي اشترطها للغواية والإهلاك فقال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣].

وقوله ﷺ: «**والنصح لأئمة المسلمين**» هذا أيضا مناف للغل والغش، فإن النصيحة لولاة الأمر لا تجامع الغش إذ هي ضده، فمن نصح الأئمة والأمة فقد برئ من الغلِّ والنصح لأولي الأمر من المسلمين إنما يكون بالسمع والطاعة لهم في المنشط والمكره أبرارا كانوا أو فجارا، وإنما الطاعة في المعروف فإذا أمروا بمعصية الله فلا طاعة للمخلوق في معصية الخالق، وبإرشادهم للخير وترغيبهم فيه، وتحذيرهم من الشر وتنفيرهم منه، والدعاء لهم بالصلاح والمعافاة، وعدم الدعاء عليهم لمنافاة ذلك للنصيحة لأن جماع النصيحة هي عناية القلب للمنصوح له كائنا من كان، والنصيحة لهم تكون سرا إن استطعت فإن عجزت أديت الذي عليك وسألت الله الذي لك، واصبر حتى تلقى النبي ﷺ على الحوض ولا تنزع يداً من طاعة ولا تشق عصا الجماعة لذلك عقب النبي ﷺ بعد المناصحة لولاة الأمر بالأمر الثالث وهو لزوم

الجماعة في قوله ﷺ: «**ولزوم جماعتهم**» وهذا أيضا مما يطهر القلب من الغل والغش، فإن صاحبه للزوم جماعة المسلمين يحب لهم ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لها، ويسوؤه ما يسوؤهم، ويسرّه ما يسرّهم، مع الموافقة لهم في العقيدة والعمل، والحذر من الخروج على زمرتهم، لئلا تتلقفه الشياطين التي تعمل في الإنسان أعظم من الذئاب فيما ينِدُّ من الغنم.

وقوله ﷺ: «**فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**» هو من أحسن الكلام وأوجزه وأعظمه معنى، حيث شبه دعوة المسلمين بالسور والسياج المحيط بهم، المانع من دخول عدوهم عليهم، فتلك الدعوة التي هي دعوة الإسلام - وهم داخلوها - لما كانت سورا وسياجا عليهم أخبر ﷺ أن من لزم جماعة المسلمين أحاطت به تلك الدعوة التي هي دعوة الإسلام كما أحاطت بهم، فالدعوة تجمع شمل الأمة وتَلُمُّ شعثها وتحيط بها، فمن دخل في جماعتها أحاطت به وشملته وبذلك أيضا يكون للمسلم الملازم لجماعة المسلمين نصيب من دعواتهم الطيبة التي تصدر من آحادهم شاملة لعمومهم.

الوقفة الخامسة:
أهل السنة وضوابط الاجتماع

وبعد ذكر النصوص التي تحث على الجماعة وتحذر من الفرقة نكرر التأكيد على أن ضابط الجماعة الاجتماع على الحق وليس مجرد التكثير للأعداد فإن التكثير والتجميع بدون هذا الضابط غير ممدوح، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

وقال تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ [المائدة: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٨١].

وقال تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [هود: ١٧].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يونس: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١].

وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٦٨].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦].

وقال تعالى: ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الرعد: ١].

وقال تعالى: ﴿ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [النحل: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴾ [الإسراء: ٨٩].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٨، ٦٧، ١٠٣، ١٢١، ١٧٤، ١٩٠].

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾ [النمل: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴾ [الفرقان: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الروم: ٦].

وقال تعالى: ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [غافر: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [غافر: ٦١].

وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٦].

وفيما أخرجه الإمام **أحمد وأبو داود وابن ماجة والترمذي** قال رسول الله ﷺ: «**افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة وتفرقت النصارى على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة** -وفي بعض الروايات: **كلها في النار- إلا واحدة هي الجماعة**» وفي رواية: «**ما أنا عليه وأصحابي**» رواها الترمذي[1].

قال بعض السلف: «عليك بطريق الحق ولا تستوحش لقلة السالكين وإياك وطريق الباطل ولا تغتر بكثرة الهالكين»

---

(١) والجزء الخاص بالافتراق صحيح برواياته وبالنسبة للزيادة «كلها في النار إلا واحدة» اختلف العلماء في صحتها، وقد صحح العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الزيادة في السلسلة الصحيحة (٢٠٣) والحديث عند أحمد (٤/ ١٠٢) والدارمي (٢/ ٢٤١) زأبو داود (٢/ ٥٠٣ - ٥٠٤) وفيه لفظ الجماعة.

يقول العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في **مدارج السالكين**:

وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللحاق بهم، وغض الطرف عمن سواهم فإنهم لن يُغْنُوا عنك من الله شيئا، وإذا صاحوا بك في طريق سيرك فلا تلتفت إليهم فإنك متى التفتَّ إليهم أخذوك أو عاقوك.

وقد ضربت لذلك **مثلين**، فليكونا منك على بال:

- **المثل الأول**: رجل خرج من بيته إلى الصلاة لا يريد غيرها، فعرض له في طريقه شيطان من شياطين الإنس، فألقى عليه كلاما يؤذيه، فوقف وردَّ عليه، وتماسكا، فربما كان شيطان الإنس أقوى منه فقهره ومنعه عن الوصول إلى المسجد حتى فاتته الصلاة، وربما كان الرجل أقوى من شيطان الإنس ولكن اشتغل بمهاوشته عن الصف الأول وكمال إدراك الجماعة، فإن التفت إليه أطمعه في نفسه وربما فترت عزيمته فإن كان له معرفة وعلم زاد في السعي والصبر بقدر التفاته أو أكثر فإن أعرض عنه واشتغل لما هو بصدده وخاف فوْتَ الصلاة أو الوقت لم يَبْلُغ عدوُّه منه ما شاء.

- **المثل الثاني**: الظَّبْيُ أشد سعيا من الكلب، ولكنه إذا أحسَّ به التفت إليه فيضعُفُ سعْيُه فيُدْرِكُه الكلب فيأخذه.

والقصد: أن في ذكر هذا الرفيق ما يُزيلُ وحشة التفرد ويحث على السير والتشمير للحاق بهم.

وهذه إحدى الفوائد في دعاء القنوت: «**اللهم اهدني فيمن هديت**» أي: أدخلني في هذه الزمرة واجعلني رفيقا لهم ومعهم.

والفائدة الثانية: أنه توسل إلى الله عَزَّوَجَلَّ بنعمه وإحسانه إلى من أنعم عليه بالهداية؛ أي: قد أنعمت بالهداية على من هديت وكان ذلك نعمة منك فاجعل لي نصيبا من

هذه النعمة واجعلني واحدا من هؤلاء المُنْعَمِ عليهم فهو توسل إلى الله بإحسانه.

والفائدة الثالثة: كما يقول السائل للكريم: تصدّق عليّ من جملة من تصدقت عليهم وعلّمن من جملة من علَّمته وأحسن إليّ من جملة من شملته بإحسانك.

ولذلك لابد من شرط الاجتماع وشرط الاعتصام وهو الاجتماع والاعتصام بالحق وعدم التفرق عنه وهو الكتاب والسنة الصحيحة أن يكون على نفس فهم الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين–.

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥].

فالاجتماع والجماعة هي وسيلة إلى غاية هي «الحق» فمتى تخلفت الغاية والهدف فشلت الوسيلة وذهبت الريح وحصل التفرق لا محالة.

فأهل السنة على الحقيقة هم أهل الجماعة والاجتماع، مع الحرص على ذلك والتواصي به ظاهرا وباطنا ولكنهم حين يجتمعون ويدعون إلى الاجتماع، يضبطون دعوتهم بضابطين هما:

– الضابط الأول: الاجتماع على كلمة الحق

– الضابط الثاني: مراعاة ضوابط الخلاف

أولا: الاجتماع على كلمة الحق:

فالغاية والهدف من الاجتماع هو «الحق» وبدون هذا القيد الضابط لا يكون اجتماع أصلا، فضلا عن أن يكون صحيحا، ذلك أن الباطل وأهله في أمر مريج، لا يقرون على قرار، ولا يهتدون لأمر سواء، فسبب الاجتماع جمع الدين كله علما وعملا ونتيجته سعادة الدنيا والآخرة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:

«إن سبب الاجتماع والألفة جمع الدين والعمل به كله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما أمر به باطنا وظاهرا... ونتيجة الجماعة: رحمة الله ورضوانه، وسعادة الدنيا والآخرة وبياض الوجوه»[١]

قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٦-١٠٧].

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمتى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به وقعت بينهم العداوة والبغضاء، وإذا تفرق القوم فسَدوا وهلكوا وإذا اجتمعوا صحُّوا وملكوا، فإن الجماعة رحمة والفرقة عذاب»[٢].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ أيضا: «فإنهم إذا اجتمعوا كانوا مطيعين لله بذلك مرحومين، فلا تكون طاعة الله بفعل لم يأمر الله به من اعتقاد أو قول أو عمل، فلو كان القول أو العمل الذي اجتمعوا عليه لم يأمر الله به، لم يكن ذلك طاعة لله ولا سببا لرحمته»[٣].

فأهل السنة مستمسكون بالجماعة، معرضون عن مواضع التفرق والاختلاف، ملتزمون بالمصادر الثلاثة التي لا يتطرق إليها نقص أو خلل وهي: الكتاب والسنة والإجماع، بعيدون عن مواطن المتشابهات التي تفرق الجمع وتشتت الشمل، لأن الجماعة عندهم هي مناط النجاة في الدنيا والآخرة.

---

(١) مجموع الفتاوى: (١/ ١٧).

(٢) مجموع فتاوى: (٣/ ٤٢١).

(٣) مجموع الفتاوى: (١/ ١٧).

والواقع يشهد على أن البدعة تفرق الجمع وتشتت الشمل فإن أهل البدع الذين اجتمعوا على الأصول البدعية، تفرقوا وتشعبوا إلى ما لا يحصى عدًّا في الفرق المتشاكسة المتعاكسة وهذا ظاهر في الخوارج والروافض - مثلا - فكل من هاتين الطائفتين افترقت إلى فرق كثيرة بعد أن فارقوا الحق والإجتماع عليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «والبدعة مقرونة بالفرقة، كما أن السنة مقرونة بالجماعة كما يقال: أهل البدعة والفرق»[(١)].

وقال الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقال جماعة من العلماء: أصول البدع أربعة.... وهم: الخوارج، والروافض، والقدرية، والمرجئة»[(٢)].

ثانيا: مراعاة ضوابط الخلاف:

كما أمر الله تعالى بالإجتماع والإعتصام فقد حذر ونهى عن الافتراق والإبتداع فقال تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

قال عبد الله ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: في تفسير الآية: «أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة وأخبرهم أنه إنما أهلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله».

---

(١) الإستقامة: (١/ ٤٢).

(٢) الإعتصام: (٢/ ٢٢٠).

فحين يقع الخلاف العلمي بين أهل السنة يقع منضبطا بضوابطه التي من أهمها الحرص على الوحدة والائتلاف وصلاح ذات البين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد كان العلماء هم الصحابة والتابعين وقته» بعدهم إذا تنازعوا في الأمر الله في قوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وكانوا يتناظرون في المسألة مناظرة مشاورة ومناصحة،وربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والتعليمية مع بقاء الألفة والعصمة وأخوة الدين[١].

والواقع يشهد بعدلهم ورفقهم عند الاختلاف أوالذي يقع بينهم وبين أهل البدع، وقد وقع الخلاف بين الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنفسهم حول بعض مسائل العقيدة ولكن لم تكن هذه المسائل من الأمهات والكليات في هذا الباب.

بعض الأمثلة على ذلك:

اختلافهم في رؤية النبي ﷺ لربه ليلة المعراج هل وقعت أم لا؟[٢]

ومن ذلك أيضا اختلافهم فيما يوزن يوم القيامة: هل هو العمل أم العامل نفسه أي صاحب العمل[٣].

ومن ذلك اختلافهم في الأحكام الفقهية العملية وهو كثير مشهور.

فكان اختلافهم في العلم وليس في القلوب.

---

(١) مجموع الفتاوى: (٢٤/ ١٣٢).

(٢) مجموعة الفتاوى: (٤/ ٢٨٢-٢٨٣).

(٣) انظر شرح العقيدة الطحاوية لابن ابي العز: (٢/ ٦٠٨ - ٦١٣).

وأما مواقفهم مع غيرهم ممن خالف في الأصول دون الفروع فيجسده موقف عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مع الخوارج ورحمته بهم ونقاشه معهم الذي كان سببا في رجوع ألفين منهم إلى ساحة السنة وإلى طريق الجماعة.

وكذا إمام أهل السنة الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ في موقفه من مخالفيه وقد حذا حذوه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ. وهم مع هذا كانوا أحرص الناس على جمع الكلمة ووحدة الصف وإصلاح ذات البين.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: تعلمون أن من القواعد العظيمة التي هي من جماع الدين: تأليف القلوب، واجتماع الكلمة، وصلاح ذات البين، فإن الله تعالى يقول: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ١].

ثم إن من لوازم الاجتماع والدعوة إليه النهي عن الفرقة وأسبابها، قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لسماك الحنفي: يا حنفي الجماعة الجماعة فإنما هلكت الأمم السابقة لتفرقها أما سمعت الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣][1].

قال ابن وهب: «سمعت مالكا يقول: ما آية في كتاب الله أشد على أهل الاختلاف من أهل الأهواء من هذه الآية: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

قال مالك: فأي كلام أبين من هذا؟ فرأيته يتأولها لأهل الأهواء ورواه ابن القاسم وزاد: قال مالك: إنما هذه الآية لأهل القبلة»[2].

---

(١) تفسير القرطبي: (٤/ ١٦٤).

(٢) الاعتصام للشاطبي: (٢/ ٢٩٠).

لقد كان السلف يراعون ضوابط الخلاف من العدل والإنصاف والحرص على الوئام والائتلاف وإصلاح ذات البين لذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وإني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها، وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية، ومازال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل ولم يشهد أحد فيهم على أحد لا بكفر ولا بفسق ولا معصية»[1].

ومن خلال منهج القرآن والسنة بفهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يتضح لنا أن المعالجة للأخطاء والمخالفات لها شروط منها نصرة الحق والتراحم بين المؤمنين؛ فقد أمرنا الله تعالى بنصرة الحق والقيام له مع اصطحاب جميل الظن بمن له سابقة خير ما أمكن ومعالجة الخلاف - لو كان - بموضوعية وإعذار وعدل وإنصاف؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وربنا الذي أمرنا بهذه النصرة هو - سبحانه - من يحث على التراحم بين المؤمنين قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٨-٢٩].

فذكر في نسق واحد نصرة الحق والتراحم بين المؤمنين.

---

(١) مجموع الفتاوى: (٣/ ٢٢٩).

وهذا كان ديدن الأئمة والمحققين من أهل العلم، لم يكونوا يقومون على المخطئ في اجتهاده الناصح في قوله قومة تبديع وهجران بل هو النصح والمذاكرة، قال الإمام الذهبي تعليقا على الخلاف الواقع بين الإمام محمد بن نصر وابن مَنْدَه:

«لو أنا كلما أخطأ إمام في اجتهاد في أحاد المسائل خطأ مغفوراً له قمنا عليه وبدعناه وهجرناه لما سلم معنا لا ابن نصر ولا ابن مَنْدَه ولا من هو أكبر منهما فنعوذ بالله من الهوى والفظاظة»[1].

وإليك أصل مسألة الخلاف بين الإمام محمد بن نصر المروزي والإمام ابن منده - رحمهما الله تعالى-:

«كان الإمام محمد بن نصر رَحِمَهُ اللَّهُ على منهج السلف الصالح في جميع أبواب العقائد، وكتابه «السنة» وكتاب «تعظيم قدر الصلاة» وباب الإيمان منه أكبر شاهد على هذا، وقد درس مسألة الإيمان ومذاهب الناس فيه دراسة وافية في كتابه القيم «تعظيم قدر الصلاة» وأيَّد مذهب السلف وناقش جميع المذاهب والفرق مناقشة علمية، فهو لم يكن على معتقد السلف فحسب بل كان من الدعاة إليه فيستحق أن يوصف بصاحب السنة الداعية إلى العقيدة السلفية الصحيحة، وقد أنكر على جميع الفرق المبتدعة أشد الإنكار كما هو واضح وجلي في باب الإيمان من كتاب تعظيم قدر الصلاة».

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ جريئا في إبداء ما كان يراه، ولأجل هذا تكلم في بعض المسائل الحساسة لدى أهل الحديث والأثر، وأهل البدع في عصره بشيء من الصراحة لبيان حقيقة المسألة فأنكر عليه أهل العلم لخوضه فيها، فقال الحافظ ابن مَنْدَه في مسألة الإيمان: صرح محمد بن نصر في كتاب «الإيمان» بأن الإيمان مخلوق وأن الإقرار

(١) سير أعلام النبلاء، ترجمة محمد بن نصر: (١٤/ ٣٤ - ٤٠).

والشهادة وقراءة القرآن بلفظه مخلوق، ثم قال: وهجره على ذلك علماء وقته وخالفه أئمة خراسان والعراق.

قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ معلقا عليه: «قلت: الخوض في ذلك لا يجوز وكذلك لا يجوز أن يقال: الإيمان والإقرار والقراءة والتلفظ بالقرآن غير مخلوق، فإن الله خلق العباد وأعمالهم والإيمان: فقول وعمل والقراءة والتلفظ: من كسب القارئ، والمقروء الملفوظ: هو كلام الله ووحيه وتنزيله وهو غير مخلوق وكذلك كلمة الإيمان وهي قول: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» داخلة في القرآن وما كان من القرآن فليس بمخلوق، والتكلم بها من فعلنا، وأفعالنا مخلوقة، ولو أنا كلما أخطأ إمام في اجتهاد في أحاد المسائل خطأ مغفوراً له قمنا عليه وبدعناه وهجرناه لما سلم معنا لا ابن نصر ولا ابن مَنْدَه ولا هو أكبر منهما فنعوذ بالله من الهوى والفظاظة».

هذا وقد ذكر الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في ترجمة الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في «السير» قصة البخاري مع محمد بن يحيى الذهبي في مسألة خلق القرآن، ومسالة: هل اللفظ مخلوق؟!

فساق الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ عدة أقوال تلاميذ البخاري عن البخاري فقال:

قلت: المسألة هي اللفظ مخلوق وسئل عنها البخاري فوقف فيها فلما وقف واحتج بأن أفعالنا مخلوقة واستدل لذلك، فهم منه الذهبي أنه يوجه مسألة اللفظ فتكلم فيه وأخذه بلازم قوله هو وغيره، وقد قال البخاري في الحكاية التي رواها غنجار في «تاريخه» حدثنا خلف بن محمد بن إسماعيل: سمعت أبا عمرو أحمد بن نصر النيسابوري الخفاف ببخارى يقول: كنّا يوما عند أبي إسحاق القيسي ومعنا محمد بن نصر المروزي، فجرى ذكر محمد بن إسماعيل البخاري فقال محمد بن نصر: سمعته يقول: من زعم أني قلت: لفظي بالقرآن مخلوق فهو كذاب فإني لم أقله، فقلت له: يا أبا عبد الله! قد خاض الناس في هذا وأكثروا فيه فقال: ليس إلا ما أقول.

قال أبو عمرو الخفاف: فأتيتُ البخاري مناظرته في شيء من الأحاديث حتى طابت نفسه فقلت: يا أبا عبد الله! ههنا احد يحكي عنك انك قلت هذه المقالة، فقال: يا أبا عمرو! احفظ ما أقول: من زعم من أهل نيسابور، وقومس، والرِّي، وهمذان، وبغداد، والكوفة، والبصرة، ومكة، والمدينة، أني قلت: لفظي بالقرآن مخلوق فهو كذاب فإني لم أقله إلا أني قلت: أفعال العباد مخلوقة.

وقال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في ترجمة الذهلي: كان الذهلي شديد التمسك بالسنة قام على محمد بن إسماعيل لكونه أشار في مسألة خلق أفعال العباد إلى أن تلفظ القارئ بالقرآن مخلوق، فلوّح وما صرّح والحق أوضح ولكن أبى البحث في ذلك: أحمد بن حنبل وأبو زرعة والذهلي، والتوسع في عبارات المتكلمين سدّاً للذريعة فأحسنوا – أحسن الله جزاءهم – ويسافر ابن إسماعيل مختفيا من نيسابور وتألم من فعل محمد بن يحيى وما زال كلام الكبار المتعاصرين بعضهم في بعض لا يلوي عليه بمفرده... رحم الله الجميع وغفر لهم ولنا آمين.

من أجل ذلك يضبط الإمام الذهبي وهو من أئمة السلف هذه المسألة بالرد إلى مراعاة الضوابط من نصرة الحق والتراحم بين المؤمنين وهذا هو منهج القرآن الكريم والسنة النبوية بفهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وكذلك منهج أهل السنة مع المخالفين لهم من أهل الأهواء يستعملون العدل والإنصاف معهم يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «أهل السنة يستعملون معهم – أي المخالفين – العدل والإنصاف ولا يظلمونهم، فإن الظلم حرام مطلقا، بل أهل السنة لكل طائفة من هؤلاء خير من بعضهم لبعض»[1].

(١) منهاج السنة النبوية: (٥/ ١٥٧).

ومن ضوابط معالجة الخطأ استصحاب رباط الأخوة العلمية القاضية بإحسان الظن فإن العلم رَحِمٌ بين أهله، وذمة بين المشتغلين به كما قال أبو الطيب:

وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة ** إن المعرفة في أهل النهى ذمم

وأخطاء المحسن المجتهد ترتب **واجبين**:

١- النصح له في خطئه

٢- وحفظ مقامه

ولا يقوم احد الواجبين مقام الآخر، بل لا يحصل مقصود أحدهما على التمام إلا بالآخر وأما إساءة الظنون بأهل الخير فحدث في الإسلام كالأخذ بالظنة[١].

ومن الآفات الذميمة الوشاية بين العلماء ليقع بعضهم في بعض، فينبغي على العلماء أن يكونوا على علم بمكر الناس، فلو أن كل متخالفين في مسائل الاجتهاد سعى كل واحد منهما في التطويح بصاحبه لم يبق للناس أحد، وعاد هذا ضررا على الحق الذي تحملته رقابهم، والدين لا يقوم به واحد ولا اثنان حتى تقوم به وتسعى في إحيائه جماعة أهل العلم والإيمان كما قيل:

إذا العبء الثقيل توزعته ** رقاب القوم خف على الرقاب

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة وأهدرت محاسنه لفسدت العلوم والصناعات والحكم وتعطلت معالمها»[٢]

وقد جرت العادة أن من أمضى لسانه وقلمه في ذوي الفضل نقص فضله بقدر ذلك كما قيل:

---

(١) أنظر: البلاذري؛ أنساب الأشراف: (٤/ ٢٢٨).

(٢) مدارج السالكين: (٢/ ٢٩).

لا تضع من عظيم قدرٍ وإن ** كنت مشاراً إليه بالتعظيم
فالجليل العظيم ينقص قدراً ** بالتعدي على الجليل العظيم

قيل للقاضي النضر بن سلمة (٣٠٢ هـ): «إن محمد بن أسباط يقع فيك ويتناولك، وعليك أن تهدمه؛ فقال: لا والله لا أتعرض لذلك ولا أهدم من بناه الله»[1].

والهدم في هذا السياق معناه: الإطاحة والإسقاط وهذا الاقتراح الذي عُرض على القاضي المذكور لا يزال يعرض على كل عالم، ألا فليتق الله تعالى طلاب العلم ولا يمشون بالوشاية بين العلماء بتلك المقاطع المصورة والمسموعة ويضعون لها عناوين لنشر الفتنة والوقيعة بين أهل العلم والفضل، وليطبقوا منهج السلف الصالح في الحرص على الجماعة ونبذ الفرقة والمناصحة وإصلاح ذات البين، فمنهج الإسلام يقوم على التبشير لا التنفير وعلى التيسير لا التعسير.

فأهل الإيمان قلوبهم سليمة على سجية الفطرة، لا تحمل الحقد القديم، ولا تمسك السخيمة - الحقد والضغينة - وقد كانت العرب في الجاهلية يأخذ بعضهم بعضا بالأوتار والثأر، فلما جاء الإسلام حث على العفو والصفح، ووضع الدماء التي لم يدرك بها ثأر، وألف القلوب، ونفى شح النفوس، وغسل الأحقاد، فصارت العداوة سِلما، والبغضة حبا.

وقد أخبر النبي ﷺ أن أعمال المسلم لا ترفع إذا كانت بينه وبين أخيه شحناء، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**تفتح أبواب الجنة يوم الإثنين ويوم الخميس فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئا إلا رجلا كانت بينه وبين أخيه شحناء**

(١) الخشني: قضاة قرطبة ص: (٢٢٨).

فيقال: انظروا هذين حتى يصطلحا»[١].

ومن كان بالله أعلم كان إلى لين القلب أقرب وعن الجفاء أبعد، ومن ثم استمر عمل العلماء في القديم على تلطيف أخلاق الناس وإطراح عوالق الجفاء فيهم، قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا قلّت العلماء ظهر في الناس الجفاء»[٢].

فها أنت ترى أن العلماء وطلبة العلم هم ملح البلد ورياحين الزمان، التي تفيض على الأرض بفضل الله معاني الحق والخير والبر.

فالحفاظ على أهل السنة واجب شرعي ولا يجوز سكوت عن منكر، فما أحوجنا إلى تهذيب النزاع وترشيد الحوار مع الالتزام بالمبادئ وعدم التنازل عنها أو السكوت عن مزالق أهل العلم أو تهوين الانتكاسات، فزحمة الخلق لا تصادم معرفة الحق فشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ دعا إلى وئام مع الأشاعرة وهو أقوى وأكثر العلماء نقضا ونسفا لمذهبهم، فالذي نرجوه أن يكون الخلاف في العلم لا في القلوب خاصة مع أهل العلم المعتبرين في من أهل السنة لأنهم قلة فنُصَوِّب أخطاءهم مع حفظ أقدارهم، كما قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عندما اختلف مع بعض مشايخه: «شيخنا حبيب إلى قلبنا ولكن الحق أحب إلينا من شيخنا» فالواجب على أهل الحق نشر الحق وإعلانه فمن نشر الخطأ وأعلن به وكان من أهل الحق يُنصح ويُذكر بالله مع القيام بواجب نشر الحق ويُعلن مع حفظ قدر العالم المخطئ.

جاء في ترجمة الإمام محمد بن يحيى الذهلي رَحِمَهُ اللَّهُ في **التهذيب**: **(٣ / ٧٢٨)**:

«قال محمد بن داود المصِّيص: كنا عند أحمد فذكر محمد بن يحيى حديثا فيه

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٦٥).

(٢) الفقيه والمتفقه، للخطيب البغدادي (ص: ١٤٩).

ضعف فقال له أحمد: لا تذكر مثل هذا فخجل فقال له أحمد: إنما قلت هذا إجلالا لك يا أبا عبد الله».

وفي القصة فوائد عدة منها:

- **أولا**: أن الخطأ والزلل يقع من العالم الكبير والعالم النِّحرير.

- **ثانيا**: أنه ليس من شرط العالم ألا يُخْطئ، فإن ذكر الذهلي للحديث الضعيف لم يستوجب عند أحمد القدح فيه أو الذم له أو التنقيص منه.

- **ثالثا**: المناصحة ببيان الخطأ وتوضيح الزلل.

- **رابعا**: مناصحة المخطئ وإن كان جليل القدر عظيم الخطْر.

- **خامسا**: من مقاصد المناصحة إرادة زين المنصوح والبعد به عما يدنسه من الخطأ وما يحط من قدره من الزلل.

- **سادسا**: الرجوع إلى الحق وقبول النصح من خلق العلماء ومن شِيَمِ أهل الحق والإنصاف.

- **سابعا**: الحذر كل الحذر من الاحتجاج بالضعيف من الحديث.

- **ثامنا**: الرفق في المراجعة وبيان الخطأ.

- **تاسعا**: لا يلزم أن يكون النصح سرا فإن الإمام أحمد نصح الذهلي على رؤوس الأشهاد، والتحقيق أن الأمر يعود إلى المصلحة والمفسدة وحال المنصوح ومدى تقبله للنصح مع العلم بأن الخطأ إذا نشر وأُعلن فيجب أن ينشر الصواب ويعلن.

ومن هدي السلف إجلال العلماء بعضهم بعضا؛ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في **الفتاوى الكبرى**: (٦ / ٢٨٣):

«وكان محمد بن يحيى من أئمة أهل الحديث كما قال أبو نعيم الأصبهاني: أنبأنا محمد بن عبد الله يعني الحاكم؛ سمعت يحيى بن منصور القاضي يقول: سمعت خالي عبد الله بن علي ابن الجارود يقول: سمعت محمد بن سهل ابن عساكر يقول: كنا عند احمد بن حنبل فدخل محمد بن يحيى فقام إليه أحمد وتعجب منه الناس ثم قال لبنيه وأصحابه: اذهبوا إلى أبي عبد الله فاكتبوا عنه»[1].

وهذه القصة فيها من الفوائد:

- **أولا**: زيارة العلماء بعضهم بعضا، فهذه الزيارات تقوي الروابط وترفع الحرج في باب المناصحة وتعين على قبول المنصوح للنصيحة من الناصح.

- **ثانيا**: إجلال العلماء بعضهم بعضا.

- **ثالثا**: حث طلبة العلم على الأخذ من العالم المأمون.

- **رابعا**: تنبيه طلبة العلم إلى فضل العالم سواء بإظهار التبجيل له أو بحثهم وأمرهم بالأخذ عنه.

هذا وقد أشرنا سابقا غلى قصة الخلاف بين الإمام محمد بن يحيى الذهلي والإمام البخاري محمد بن إسماعيل - رحمهما الله تعالى - وأود هنا أن أبسطها لاستخراج جملة من الفوائد الهامة وإليك القصة من البداية:

جاء في **هدي الساري للحافظ ابن حجر** رَحِمَهُ اللَّهُ ص: (٦٥٨ - ٦٥٩):

«قال الحاكم أبو عبد الله في تاريخه: قدم البخاري نيسابور سنة خمسين ومئتين فأقام بها مدة يحدث على الدوام، قال: فسمعت محمد بن حامد البزار يقول: سمعت الحسن بن محمد بن جابر يقول: سمعت محمد بن يحيى الذهلي يقول: اذهبوا إلى هذا

(١) وانظر: تهذيب التهذيب: (٣/ ٧٢٨).

الرجل الصالح العالم فاسمعوا منه، قال: فذهب إليه الناس فأقبلوا على السماع منه حتى ظهر الخلل في مجلس محمد بن يحيى، قال: فتكلم فيه بعد ذلك.

وقال حاتم بن أحمد بن محمود: سمعت مسلم بن الحجاج يقول: لما قدم محمد بن إسماعيل نيسابور ما رأيت واليا ولا عالما فعل به أهل نيسابور ما فعلوا به، استقبلوه من مرحلتين من البلد أو ثلاث، وقال محمد بن يحيى الذهلي في مجلسه: من أراد أن يستقبل محمد بن إسماعيل غدا فليستقبله فإني أستقبله، فاستقبله محمد بن يحيى وعامة علماء نيسابور، فنزل البلد فنزل دار البخاريين، فقال لنا محمد بن يحيى: لا تسألوه عن شيء من الكلام فإنه إن أجاب بخلاف ما نحن عليه وقع بيننا وبينه وشمت بنا كل ناصبي ورافضي وجهمي ومرجئ بخراسان، قال: فازدحم الناس على محمد بن إسماعيل حتى امتلأت الدار والسطوح فلما كان اليوم الثاني أو الثالث من يوم قدومه قام إليه رجل فسأله عن اللفظ بالقرآن فقال: أفعالنا مخلوقة وألفاظنا من أفعالنا، قال: فوقع بين الناس اختلاف فقال بعضهم: لفظي بالقرآن مخلوق وقال بعضهم: لم يقل، فوقع بينهم في ذلك اختلاف حتى قام بعضهم إلى بعض قال: فاجتمع أهل الدار فأخرجوهم.

وقال أبو أحمد بن عدي: ذكر لي جماعة من المشايخ أن محمد بن إسماعيل لما ورد نيسابور واجتمع الناس عنده حسده بعض شيوخ الوقت فقال لأصحاب الحديث: إن محمد بن إسماعيل يقول لفظي بالقرآن مخلوق فلما حضر المجلس قام إليه رجل فقال: يا أبا عبد الله ماذا تقول باللفظ في القرآن مخلوق هو أو غير مخلوق؟ فأعرض عنه البخاري ولم يجبه ثلاثا فألح عليه فقال: القرآن كلام الله غير مخلوق وأفعال العباد مخلوقة، والامتحان بدعة، فشغب الرجل وقال: قد قال لفظي بالقرآن مخلوق.

وقال الحاكم: حدثنا أبو بكر بن أبي الهيثم حدثنا الفربري قال: سمعت محمد بن إسماعيل يقول: إن أفعال العباد مخلوقة فقد حدثنا علي بن عبد الله حدثنا مروان بن

معاوية حدثنا أبو مالك عن ربعي بن خراش عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يصنع كلَّ صانع وصنعته» قال البخاري: وسمعت عبيد الله بن سعيد - يعني أبا قدامة السرخس - يقول: مازلت أسمع أصحابنا يقولون: إن أفعال العباد مخلوقة، قال محمد بن إسماعيل: حركاته وأصواتهم وأكسابهم وكتابتهم مخلوقة، فأما القرآن المبين المثبت في المصاحف الموعى في القلوب فهو كلام الله غير مخلوق. قال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَـٰتُۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ ﴾ [العنكبوت: ٤٩] قال: وقال إسحاق بن راهوية: أما الأوعية فمن يشك أنها مخلوقة. وقال أبو حامد بن الشرقي: سمعت محمد بن يحيى الذهلي يقول: القرآن كلام الله غير مخلوق ومن زعم لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع ولا يُجالس ولا يُكلّم ومن ذهب بعد هذا إلى محمد بن إسماعيل فاتهموه، فإنه لا يحضر مجلسه إلا من كان على مذهبه.

وقال الحاكم: ولما وقع بين البخاري والذهلي في مسألة اللفظ انقطع الناس عن البخاري إلا مسلم بن الحجاج وأحمد بن سلمة، قال الذهلي: ألا من قال باللفظ فلا يحل له أن يحضر مجلسنا، فأخذ مسلم رداءه فوق عمامته وقام على رؤوس الناس فبعث إلى الذهلي جميع ما كان كتبه عنه على ظهر جمال. قلت: وقد أنصف مسلم فلم يحدث في كتابه عن هذا ولا عن هذا.

وقال الحاكم أبو عبد الله: سمعت محمد بن صالح بن هانئ يقول: سمعت أحمد بن سلمة النيسابوري يقول: دخلت على البخاري فقلت: يا أبا عبد الله إن هذا رجل مقبول بخراسان خصوصا في هذه المدينة وقد لحَّ في هذا الأمر حتى لا يقدر أحدٌ منَّا أن يكلمه فيه فما ترى؟ قال: فقبض على لحيته ثم قال: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٤]. اللهم إنك تعلم أني لم أرد المقام بنيسابور أشراً ولا بطراً ولا طلبا للرياسة وإنما أبت علي نفسي الرجوع إلى الوطن لمغالبة المخالفين وقد قصدني هذا الرجل حسدا لما آتاني الله لا غير ثم قال لي: يا أحمد إني خارج غدا

لتخلصوا من حديثه لأجلي.

وقال الحاكم أيضا: عن الحافظ أبي عبد الله بن الأخرم قال: لما قام مسلم بن الحجاج وأحمد بن سلمة من مجلس محمد بن يحيى بسبب البخاري، قال الذهلي: لا يساكنني هذا الرجل في البلد فخشي البخاري فسافر.

وقال غنجار في تاريخ بخارى: حدثنا خلف بن محمد قال: سمعت أبا عمرو أحمد بن نصر النيسابوري الخفاف بنيسابور يقول: كنا يوما عند أبي إسحاق القرشي ومعنا محمد بن نصر المروزي فجرى ذكر محمد بن إسماعيل فقال محمد بن نصر: سمعته يقول: من زعم أني قلت لفظي بالقرآن مخلوق فهو كذاب فإني لم أقله، فقلت له: يا أبا عبد اللهقد خاض الناس في هذا فأكثروا فقال: ليس إلا ما أقول لك قال أبو عمرو: فأتيت البخاري فذاكرته بشيء من الحديث حتى طابت نفسه فقلت: يا أبا عبد الله هاهنا من يحكي عنك أنك تقول: لفظي بالقرآن مخلوق فقال: يا أبا عمرو احفظ عني: من زعم من أهل نيسابور وسمى غيرها من البلدان بلادا كثيرة أنني قلت لفظي بالقرآن مخلوق فهو كذاب فإني لم أقله، إلا أني قلت: أفعال العباد مخلوقة.

وقال الحاكم: سمعت أبا الوليد حسان بن محمد الفقيه يقول: سمعت محمد بن نعيم يقول: سألت محمد بن إسماعيل لما وقع في شأنه ما وقع عن الإيمان فقال: قول وعمل ويزيد وينقص والقرآن كلام الله غير مخلوق وأفضل أصحاب رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، على هذا حييت وعليه أموت وعليه أبقى إن شاء الله تعالى».

يقول أبو عبد الرحمن العباسي: وقصة الخلاف بين محمد بن إسماعيل البخاري وشيخه محمد يحيى الذهلي وموقف العلماء من ذلك الخلاف قصة مشهورة معروفة **وفيها فوائد مهمة وعظيمة منها:**

- **أولا**: بيان العلاقة الحميمة الجيدة التي كانت بين الشيخ وتلميذه أول الأمر والتي تصلح أن تكون مثالا لما يجب ان تكون عليه العلاقة بين أهل السنة علماء ومشايخ وطلبة علم ومن الصور المعبرة عن جمال هذه العلاقة ما يلي:

١- استقبال محمد بن يحيى للبخاري عند قدومه نيسابور خارج البلد على مرحلتين أو ثلاث مراحل.

٢- حثه للعلماء وطلبة العلم وعامة الناس على الخروج لاستقبال البخاري عند دخوله نيسابور.

٣- حث محمد بن يحيى الناس على الذهاب إلى البخاري وطلب العلم عنده وسماع الحديث من مجلس درسه.

- **ثانيا**: مكانة العلماء عند العامة والولاة في ذلك الزمان فقد كانوا في منزلة لا تدانيها منزلة فهم القادة والموجهون، الرأي رأيهم والقول قولهم، إليهم المرجع والمنتهى والكل يصدرون عن رأيهم ويظهر ذلك جليا في استقبال الناس للبخاري عند دخوله نيسابور، وفي سطوة محمد بن يحيى لما أمر الناس بهجر البخاري والنفور من مجلسه.

- **ثالثا**: حكمة محمد بن يحيى لّما أمر بعدم سؤال البخاري عن أصول العقائد فإنه نظر إلى أمرين:

١- خشي أن يخطئ البخاري في الجواب فيقع في الخلاف بينه وبين علماء السنة في نيسابور.

٢- خشي ما يترتب على هذه الوقيعة والخلاف من شماتة أهل البدع بأهل السنة والجماعة.

ولذلك فإن العالم الفاضل إن بمخالفة في شيء معين فلا يصح أن يسأل عن هذا الشيء حتى لا يؤدي ذلك إلى الفتنة والهرج والمرج وتحول بعض الناس عليه وشماتة المخالفين من أهل البدع وفرحهم بمقالته.

- **رابعا:** حرص الناس على طلب العلم ومجالسة العلماء ومزاحمة الطلبة بالركب في حلق العلم ولعل هذا يبدو جليا في ازدحام الناس على طلب العلم في حلقة البخاري حتى امتلأت الدار والسطوح.

- **خامسا:** لابد في كل عصر ومصر من قوم سوء يخالفون العلماء ولا يأخذون بنصائحهم ويسعون إلى إحداث الاضطراب والبلبلة بين الناس، ترى ذلك في الرجل السائل للبخاري عن مسألة اللفظ برغم نهي محمد بن يحيى عن سؤاله عن ذلك.

- **سادسا:** معرفة ما في مخالفة نصائح العلماء من الفساد والضرر وذلك يظهر جليا في الفساد الذي ترتب على ترك الأخذ بنصيحة الذهلي في ترك سؤال البخاري عن أصول الاعتقاد.

- **سابعا:** أن السؤال بغرض الامتحان بدعة كما قال البخاري وفي المسألة تفصيل وهو أن نقول إن السؤال يقع على أنواع:

١- سؤال الجاهل الذي يريد المعرفة والتعلم.

٢- سؤال العارف الذي يريد الفائدة والاستزادة من معرفة المسألة.

٣- سؤال العالم في المدارسة والمذاكرة.

٤- سؤال المناظر في البحث والمناظرة.

٥- سؤال المتعنت الذي يبحث عن الزلل ويبتغي للبراء العنت.

٦- سؤال الممتحن لمعرفة مذهب الشيخ في المسألة.

والذي يظهر أن العلماء على قسمين:

أ- علماء ينتسبون إلى السنة ويدعون إليها وهم معروفون بسلامة العقيدة وحسن المنهاج فمثل هؤلاء لا يصح امتحانهم.

ب- وعلماء لهم تلبس بشيء من البدع ولهم شهرة بالخلل في جوانب من العقيدة أو الخلل في شيء من المنهج أو لهم دعوة معروفة إلى الحزبية والتحزب فمثل هؤلاء لابد من امتحانهم لمعرفة قولهم ولتعريف الناس بهم وببدعتهم ومنهجهم وحزبيتهم.

وبالجملة لابد من مراعاة المصالح والمفاسد والنظر إلى الواقع والحال والنظر إلى الأنسب والأفضل في تحديد وقت السؤال وكيفيته وهل يكون على رؤوس الأشهاد في حلقة الدرس أم يكون على سرية وانفراد.

- **ثامنا**: أن الغيرة والحسد تقعان بين العلماء وإن كانوا من كبار الأئمة.

- **تاسعا**: أن الجرح إذا وقع بسبب التنافس أو الحسد أو الغيرة فلا يلتفت إليه.

- **عاشرا**: تقييد عموم قاعدة الأخذ بخبر الثقة فإن الذهلي لما جرّح البخاري ورماه بالبدعة لم يأخذ جمهور العلماء بقوله.

- **حادي عشر**: ضوابط الحكم على من رماه بعض العلماء بالبدعة فنفى التهمة عن نفسه.

- **ثاني عشر**: التفريق بين جرح الذهلي للبخاري وجرحه لداود بن علي الظاهري والفرق يظهر من وجوه:

١- أن جرح داود مستنده سماع الذهلي بنفسه بينما جرح البخاري مستنده أقوال نقلت إليه.

٢- أن جرح داود وافقه عليه علماء نيسابور بينما اختلف علماء البلاد في جرح البخاري.

٣- أن جرح داود صرح لرجل لم يعرف بالسنة والنصرة لها بل قد عرف بشيء من البدع بخلاف جرح البخاري فإنه جرح لجبل من جبال السنة عرف بنصرة العقيدة والدعوة إليها.

٤- وقوع شبهة الحسد والتنافس في جرح البخاري بخلاف جرح داود الأصبهاني فإنه لا شبهة في ذلك.

- **ثالث عشر**: وقوع الخلاف بين الرجلين ليس قادحا في عدالة وإمامة كليهما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وأعظم ما وقعت فتنة اللفظ بخراسان وتُعُصّبَ فيها على البخاري مع جلالته وإمامته وإن كان الذين قاموا عليه أيضا أئمة أجلاء فالبخاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أجل الناس. وإذا حسن قصدهم واجتهد هو وهم، أثابه الله وإياهم على حسن القصد القصد والاجتهاد، وإن كان وقع منه او منهم بعض الغلط والخطأ فالله يغفر لهم كلهم. لكن من الجُهّال من لا يدري كيف وقعت الأمور، حتى رأيت بخط بعض الشيوخ الذين لهم علم ودين، يقول: مات البخاري بقرية «خرتنك» فأرسل أحمد إلى أهل القرية يأمرهم ألا يصلوا عليه لأجل قوله في مسألة اللفظ وهذا من أبْين الكذب على أحمد والبخاري وكاذبه جاهل بحالهما فإن البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ توفي سنة ست وخمسين ومائتين بعد موت احمد بخمس عشرة سنة فإن أحمد أحمد توفي سنة إحدى وأربعين ومائتين، وكان أحمد مكرما للبخاري معظما، وأما تعظيم البخاري لأحمد فهو أشهر من أن يذكر»[1].

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٢/ ١١٣).

- **رابع عشر**: موقف الإمامين أبي زرعة وأبي حاتم الرازيين من كتاب محمد بن يحيى الذهلي باتهام البخاري ببدعة اللفظ. فإن الإمامين كانا يُثنيان على الإمام البخاري الثناء العاطر حتى أن أبا حاتم الرازي قال: «لم تُخرّج خراسان قط أحفظ من محمد بن إسماعيل ولا قدم منها إلى العراق أعلم منه» كما في ترجمة البخاري من **مقدمة الفتح ص (٦٥٠)**.

وفيها أيضا: «قال محمد بن حريث: سألت أبا زرعة عن ابن لهيعة فقال لي: تركه أبو عبد الله يعني البخاري».

فلما وقعت بين البخاري وبين محمد بن يحيى الذهلي فتنة اللفظ بخراسان كتب إليهما محمد بن يحيى أن البخاري يكتب باللفظ فكان من موقف الإمامين مع البخاري ما ذكر ابن أبي حاتم في كتاب **الجرح والتعديل**: **(٧ / ٢٥٩)** حيث قال:

«محمد بن إسماعيل البخاري، لإبو عبد الله: قدم عليهم الرِّي سنة مائة وخمسين روى عن عبد الله المروزي وأبي همام الصلت بن محمد، الضريابي، وابن أبي أويس، سمع منه أبي وأبو زرعة ثم تركا حديثه عندما كتب إليهما محمد بن يحيى النيسابوري أنه أظهر عندهم أن لفظه بالقرآن مخلوق» ولا شك أن الإمامين قد جانبا الصواب في ذلك لأمور:

١- أنهما لم يتثبتا من صحة الخبر.

٢- أنهما لم ينظرا إلى ما يمكن أن يكون بين الرجلين من التنافس والحسد.

٣- أنهما لم يراعيا أن البخاري كان معروفا عندهما بالتمسك بالسنة.

- أنهما لم ينظرا في مخالفة من خالف الذهلي في رمي البخاري ببدعة اللفظ.

ولذلك لم يلتفت العلماء إلى تركهما للبخاري، ولم يضر ذلك البخاري شيئا حتى قال الإمام الذهبي تعليقا على ذلك في **السير**: **(١٢ / ٤٦٣)**:

«قلت: إن تركا حديثه أو لم يتركاه فالبخاري ثقة مأمون محتج به في العالم» ويقول السبكي رَحِمَهُ اللَّهُ في **طبقات الشافعية**: «**٢ / ١٢ : ١٣**»:

«ومن أمثلة ما قدمنا قول بعضهم في البخاري: «تركه أبو زرعة وأبو حاتم من أجل مسألة اللفظ» فيا لله والمسلمين؟ أيجوز لأحد أن يقول البخاري متروك وهو حامل لواء الصناعة ومقدم أهل السنة والجماعة؟ ثم يا لله والمسلمين أتجعل ممادحه مذام فإن الحق في مسألة اللفظ معه...».

- **خامس عشر**: براءة البخاري من الاتهام بالبدعة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في **مجموع الفتاوى**: (**١٦ / ٢٢٠ - ٢٢١**):

«والبخاري إنما يثبت خلق أفعال العباد حركاتهم وأصواتهم، وهذه القراءة هي فعل العبد يؤمر به ويُنهى عنه، وأما الكلام نفسه فهو كلام الله، ولم يقل البخاري أن لفظ العبد مخلوق ولا غير مخلوق كما نهى أحمد عن هذا وهذا، والذي قال البخاري أنه مخلوق من أفعال العباد وصفاتهم، ولم يقل احمد ولا غيره من السلف إنه غير مخلوق وإن سكتوا عنه لظهور أمره ولكونهم كانوا يقصدون الرد على الجهمية، والذي قال أحمد أنه غير مخلوق - وهو كلام الله لا صفة العباد - لم يقل البخاري إنه مخلوق، ولكن أحمد كان مقصوده الرد على من يجعل كلام الله مخلوقا إذا بلغ عن الله، والبخاري كان مقصوده الرد على من يقول: أفعال العباد وأصواتهم غير مخلوقة، وكلا القصدين صحيح لا منافاة بينهما وقد بين ذلك ابن قتيبة في مسألة اللفظ ولكن المنحرفون إلى احد الطرفين ينكرون على الآخر».

ويقول شيخ الإسلام في **رد التعارض**: (**١/ ٢٦٢**): «وكان أهل الحديث قد افترقوا في ذلك فصار طائفة منهم يقولون: لفظنا بالقرآن غير مخلوق ومرادهم أن القرآن المسموع غير مخلوق وليس مرادهم صوت العبد كما يذكر ذلك عن أبي حاتم الرازي ومحمد بن داود المِصِّيص وطوائف غير هؤلاء، وفي أتباع هؤلاء من قد

يدخل صوت العبد وفعله في ذلك أو يقف فيه، ففهم ذلك بعض الأئمة فصار يقول أفعال العباد وأصواتهم مخلوقة ردا على هؤلاء كما فعل البخاري ومحمد بن نصر المروزي وغيرهما من أهل السّنّة. وصار يحصل بسبب كثرة الخوض في ذلك ألفاظ مشتركة وأهواء للنفوس وحصل بسبب ذلك نوع من الفرقة والفتنة وحصل بين البخاري وبين محمد بن يحيى الذهلي في ذلك ما هو معروف وصار قوم مع كمسلم بن الحجاج ونحوه، وقوم عليه كأبي زرعة وأبي حاتم الرازيين وغيرهما».

ويقول شيخ الإسلام في **مجموع الفتاوى**: (١٢ / ١٩٦):

«وكذلك افترى بعض الناس على البخاري الإمام صاحب الصحيح أنه كان يقول: لفظي بالقرآن مخلوق، وجعلوه من اللفظية حتى وقع بينه وبين أصحابه مثل محمد بن يحيى الذهلي وأبي زرعة وأبي حاتم وغيرهم بسبب ذلك وكان من القضية أهواء وظنون».

وقد بوب الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في مقدمة الفتح في ترجمة البخاري فقال:

ذكر ما وقع بينه وبين الذهلي في مسألة اللفظ، وما حصل له من المحنة بسبب ذلك وبراءته مما نسب إليه من ذلك.

- **سادس عشر**: تنفير العلماء من مجالس أهل البدع.

- **سابع عشر**: عدم أخذ طلبة العلم بالجرح إذا تبين بعده عن الصواب وإن كان صادرا من إمام جليل وعالم كبير.

- **ثامن عشر**: مخالفة الإمام العظيم إذا جرح بغير بيّنة صحيحة.

- **تاسع عشر**: نصرة من ظُلم وجُرح بما لا يصح عنه، كما هو بين في فعل الإمام مسلم ونصرته للبخاري ومخالفته للذهلي حتى أقصاه الذهلي عن مجلسه.

قال الخطيب البغدادي في **تاريخ بغداد: (١٣ / ١٠٣)**: «كان مسلم يناضل عن البخاري حتى أوحش ما بينه وبين محمد بن يحيى بسببه»[(١)].

- **العشرون**: وفاء الإمام مسلم بعدم روايته عن الذهلي.

- **حادي والعشرون**: تقييد قول أبي حاتم الرازي: «علامة أهل البدع الوقيعة في أهل الأثر» فإن هذه قاعدة سلفية عامة ولو أعملناها على إطلاقها لوقعنا في تبديع كثير من أهل العلم والسنة فلابد من التعامل مع هذه القاعدة بأحد طريقين:

١ـ استعمال قاعدة التفريق بين الحكم على النوع والحكم على المعين.

٢ـ إدخال مقيدات على القاعدة لتصحيح المعنى.

ولابد من ملاحظة الآتي:

١- أن هذه القاعدة من كلام غير المعصوم.

٢- إذا لم نأخذ بما تقدم لزمنا تبديع كثير من أهل العلم من أهل السنة والجماعة الذين تكلم بعضهم في بعض.

٣- إذا كانت النصوص النبوية العامة يدخلها التقييد ويفرق في الحكم بمقتضاها بين النوع والمعين مثل حديث: «علامة الإيمان حب الأنصار وعلامة النفاق بغض الأنصار» فكيف بالقواعد التي هي من كلام البشر غير المعصوم.

- **الثاني والعشرون**: الأئمة الكبار المتصدرون للسنة والذب عنها لا يأمنون أن يكون في قواعد العلم ما يقربهم من البدعة، فلو سلك معهم من الطرق ما سلكوه مع خصومهم الذين بدّعوهم لأصابتهم سهام التبديع والتضليل والإمام محمد بن يحيى الذهلي والإمامان أبو زرعة وأبو حاتم الرازيان والحافظ بن مَنْدَه هم خير مثال لذلك.

---

(١) وانظر النبلاء للذهبي: (١٢/ ٥٧٣).

فقد ثبت عن الإمام أحمد أنه قال: «من قال لفظه بالقرآن مخلوق فهو جهمي ومن قال لفظي بالقرآن غير مخلوق فهو مبتدع لا يكلم»[١]

والقول بأن اللفظ بالقرآن غير مخلوق هو قول الذهلي والرازيين وابن مَنْدَه وطائفة من أصحاب الحديث.

يقول شيخ الإسلام في **مجموع الفتاوى**: **(١٢ / ٢٠٠ - ٢٠١)**:

«وأما المنصوص الصريح عند الإمام أحمد وأعيان أصحابه وسائر أئمة السنة والحديث، فلا يقولون مخلوقة ولا غير مخلوقة، ولا يقولون التلاوة هي المتلو مطلقا ولا غير المتلو مطلقا كما لا يقولون الإسم هو المسمى ولا غير المسمى.

وذلك أن التلاوة والقراءة كاللفظ قد يراد بها مصدر تلى يتلو تلاوة، وقرأ يقرأ قراءة، ولفظ يلفظ لفظا، ومسمى المصدر هو فعل العبد وحركاته وهذا المراد باسم التلاوة والقراءة واللفظ مخلوق، وليس ذلك هو القول المسموع الذي هو المتلو وقد يراد باللفظ الملفوظ وبالتلاوة المتلو وبالقراءة المقروء وهو القول المسجوع وذلك هو الملتو ومعلوم أن القرآن المتلو الذي يتلوه العبد ويلفظ به غير مخلوق، وقد يراد بذلك مجموع الأمريْن، فلا يجوز إطلاق الخلق على الجميع ولا نفي الخلق عن الجميع»

ويقول الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في **سير أعلام النبلاء**: **(١١ / ٢٩٠)**:

«فلقد أحسن الإمام أحمد أبو عبد الله حيث منع من الخوض في المسألة من الطرفين إذ كل واحد من إطلاق الخليقة وعدمها على اللفظ؛ فوهم ولم يأت به كتاب ولا سنة بل الذي لا نرتاب فيه أن القرآن كلام الله غير مخلوق والله أعلم»[٢].

---

(١) رواه الخلال في السنة برقم: (٢١٦٧).

(٢) راجع مقال: وقفات علمية مع الإمام محمد بن يحيى الذهلي للشيخ حاتم بن أحمد الطيب العباسي - حفظه الله -.

الوقفة السادسة
خطورة الفرقة:

وبعد بيان النصوص الواردة في الكتاب والسنة على أهمية الاجتماع والتحذير من الفرقة لابد من بيان خطورة الفرقة على الأمة وبيان أسبابها كيْ نحذرها فأقول وبالله التوفيق:

خطورة الفرقة:

من أعظم البلايا وأعظم الرزايا التي ابتليت بها الأمة الاختلاف المذموم والتفرق والتحزب والبعد عن الجادة عن منهج أهل السنة والجماعة الذي يدعو إلى الجماعة ويحذر من التفرقة لأنها - أي التفرقة - أخطر الأمراض التي انتشرت في جسد الأمة المسلمة فأذهبت ريحها وكانت من أعظم الأسباب في تسلط الأعداء عليها.

أخرج أبو داود في سننه باب: في **تداعي الأمم على الإسلام برقم (٤٢٩٧)** من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**»، فقال قائل ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «**بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن**»، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**»[1].

ومعنى الحديث: يقرب فرق الكفر وأمم الضلالة أن يدعو بعضهم بعضا لمقاومتكم وكسر شوكتكم وسلب ما ملكتموه من الديار والأموال كما يدعو أكلة

(١) وأخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢٨٧) وعند أحمد من رواية أبي هريرة (٢/ ٢٥٩) والحديث صحيح بطرقه وشواهده.

الطعام بعضهم بعضا إلى المائدة التي يتناولون منها بلا مانع ولا منازع، فيأكلونها عفوا وصفوا كذلك يأخذون ما في أيديكم بلا تعب ينالهم أو ضرر يلحقهم أو بأس يمنعهم والعجيب أنكم في كثرة كاثرة ولكنها لا تسمن ولا تغني من جوع لأنها كغثاء السيل وهو ما يحمله السيل من زبد ووسخ شبههم به لقلة شجاعتهم ودناءة قدرهم، ولاشك أن التفرق من أعظم أسباب الغثائية، ومن أجل ذلك ليخرجن الله تعالى الخوف والرعب من قلوب الأعداء نحونا وليقذفن أي ليرمين الله الوهْن أي الضعف في قلوب هؤلاء المتفرقين الذين آثروا الدنيا وانغمسوا فيها وكرهوا الموت فحب الدنيا وكراهية الموت سبب الوهن الذي يلقيه الله تعالى في قلوب الأمة التي تمزقت وتفرقت وتحزبت فانكسرت وذهب ريحها، فحب الدنيا وكراهية الموت متلازمان فكأنهما شيء واحد يدعوهم إلى إعطاء الدَّنيَّةِ في الدين من العدو المبين، ولذا قال الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وفي الحديث التحذير من السبب الذي كان العامل على تكالب الأمم وهجومهم علينا ألا وهو «حب الدنيا وكراهية الموت» فإن هذا الحب يستلزم التفرق والتشتت والرضا بالذل والاستكانة إليه والرغبة عن الجهاد في سبيل الله على اختلاف أنواعه من الجهاد بالنفس والجهاد بالمال واللسان وغير ذلك وهذا هو حال غالب المسلمين اليوم – إلا من رحم الله – مع الأسف الشديد.

فالحديث يشير إلى أن الخلاص مما نحن فيه يكون بنبذ هذا العامل والأخذ بأسباب القوة والفلاح في الدنيا والآخرة حتى نعود كما كان أسلافنا.

وهكذا يجب أن يتناول الدعاة إلى الله تعالى أحاديث الفتن ويزيلوا الفهم الخاطئ عن المسلمين في مثل هذه الأحاديث والتي يفهمها البعض فهما خاطئا بأنها تدعو إلى الرضا بما نحن فيه والبقاء عليه وعدم العمل على تغييره فهذا فهم خاطئ والدليل على ذلك:

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وقول الرسول الكريم ﷺ: «**إذا تبايعتم بالعِينَة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم**»[(١)].

فتأمل كيف اتفق صريح قوله ﷺ في هذا الحديث: «**لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم**» فثبت ان هدف الحديث هو تحذير المسلمين من الاستمرار في أسباب الانكسار كالتفرق الناتج عن «حب الدنيا وكراهية الموت» ويا له من هدف عظيم لو ان المسلمين تنبهوا له وعملوا بمقتضاه لصاروا سادة الدنيا ولكن لابد لهذا الليل أن ينجلي ليتحقق ما أخبرنا به رسول الله ﷺ في أحاديث كثيرة من أن الإسلام سيعم الدنيا كلها فقال عليه الصلاة والسلام: «**ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل، عِزّاً يعز الله به الإسلام وذلاّ يذلُّ الله به الكفر**»[(٢)].

ومصداق هذا الحديث من كتاب الله تعالى قوله ﷻ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢-٣٣].

---

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ١٠٠) وأحمد (رقم: ٤٨٢٥ و٥٠٠٧ و٢٥٦٢) والدولابي في الكني (٥٢) والبيهقي (٥/ ٣١٦) من طرق عن: ابن عمر صحّح أحدها ابن القطان وحسّن آخر شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى (٣/ ٣٢، ٢٧٨).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٠٣) والطبراني في المعجم الكبير (١/ ١٢٦/ ٢) والحاكم (٤/ ٤٣٠) وابن منده في كتاب الإيمان (١/ ١٠٢) وسنده صحيح وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وقال المقدسي: حديث حسن صحيح.

فمن خطورة الفرقة على الأمة ما يلي:

١- أنها سبب هلاك الأمة:

الفرقة والاختلاف المذموم من أعظم أسباب هلاك الأمم والمجتمعات فقد أخرج الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رجلا قرأ آية، وسمعت النبي ﷺ يقرأ خلافها فجئت به إلى النبي ﷺ فأخبرته فعرفت من وجهه الكراهية وقال: «**كلاكما محسن ولا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا**»[(١)].

وفيما أخرجه الشيخان البخاري ومسلم - رحمهما الله تعالى - من حديث أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم**»[(٢)].

ففي هذا الحديث بيان أن سبب الهلاك للأمم السابقة الاختلاف على الأنبياء وكثرته وذلك بالمعارضة والمخالفة وهذا كقوله ﷺ في الإمام: «**إنما جُعِل الإمام ليؤتمَّ به فلا تختلفوا عليه**»[(٣)].

فقال هنا «فلا تختلفوا عليه» ولم يقل: فلا تختلفوا عنه. وهكذا في هذا الحديث قال: اختلافهم على أنبيائهم ولم يقل: عن أنبيائهم لأن كلمة (على) تفيد أن هناك معارضة للأنبياء.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٣٤٧٦).

(٢) أخرجه البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ (٦٧٧٧) ومسلم كتاب الفضائل باب: توقيره ﷺ (١٣٣٧).

(٣) أخرجه البخاري كتاب الصلاة: باب الصلاة في السطوح والمنبر والخشب (٣٧٨) ومسلم كتاب الصلاة: باب ائتمام المأموم بالإمام (٤١١) (٧٧).

وفي الحديث فوائد منها:

أ- وجوب الكف عما نهى عنه النبي ﷺ لقوله: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه» وقد حذرنا من التفرقة والاختلاف المذموم.

ب- أن المنهي عنه يشمل القليل والكثير لأنه لا يتأتى اجتنابه إلا باجتناب قليله وكثيره.

ج- أن الكف أهون من الفعل لأن النبي ﷺ أمر في المنهيات أن تُجتنب كلها لأن الكف أهون.

فإن قال قائل: يرد على هذا إباحة الميتة والخنزير للمضطر، وإذا كان مضطرا لم يجب الاجتناب؟ فالجواب عن هذا نقول: إذا وجدت الضرورة ارتفع التحريم فلا تحريم عند الضرورة أصلا ولهذا كان من قواعد أصول الفقه: «لا محرم مع الضرورة ولا واجب مع العجز» إذن هذا الإيراد غير وارد.

فلو قال لنا قائل: «فاجتنبوه» عام فيشمل اجتناب أكل الميتة عند الضرورة.

فنقول: لا يشمل لأنه إذا وجدت الضرورة ارتفع التحريم.

قال تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩].

فمن اضطر إلى أكل الميتة جاز له أن يأكل منها ومن اضطر إلى شرب الخمر جاز له شرب الخمر ولكن الضرورة إلى شرب الخمر تصدق في صورة واحدة وهي: إذا غص بلقمة وليس أمامه إلا خمر فإنه يشربه لدفع اللقمة ولا يزيد لأن الضرورة تقدر بقدرها وأما شرب الخمر للعطش فلا يجوز قال أهل العلم: لأن الخمر لا يزيد العطشان إلا عطشا فلا تندفع به الضرورة.

ويجب على المضطر أن يقتصر على ما تبقى به الحياة فقط ولا يشبع هذا قول

بعض العلماء، والصحيح كما قال العلامة الشيخ العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: التفصيل في هذا: فإن كان يعلم أو يغلب على ظنه أنه سيحصل على شيء مباح قريبا فليس له أن يشبع إلا إذا كان معه شيء يحفظ به اللحم إن احتاجه أكله فهنا لا حاجة للشبع بل يكون بقدر ما تندفع به الضرورة؛ والضرورة إلى المحرم هي: أن لا يجد سوى هذا المحرم وأن تندفع به الضرورة، وعلى هذا فإذا كان يجد غير المحرم فلا ضرورة وإذا كان المحرم لا تندفع به الضرورة فلا يَحِلُّ.

مسألة التداوي بالمحرم عند الضرورة مسألة غير صحيحة وقد نص العلماء – رحمهم الله تعالى – على أنه **يحرم التداوي بالمحرم وذلك لسببين:**

– **الأول**: لأنه قد يبرأ المريض بدون دواء وحينئذ لا ضرورة.

– **الثاني**: قد يتداوى به المريض ولا يبرأ وحينئذ لا تندفع الضرورة.

د – أنه لا يجب من فعل المأمور إلا ما كان مستطاعا لقوله ﷺ «**وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم**» ولقوله تعالى: ﴿ **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ** ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

هـ– أن الإنسان له استطاعة وقدرة لقوله ﷺ: «**ما استطعتم**» فيكون فيه رد على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان لا استطاعة له، لأنه مجبر على عمله، حتى الإنسان إذا حرك يده عند الكلام فيقولون: تحريك اليد ليس باستطاعته، بل مجبر، ولا ريب أن هذا قول باطل يترتب عليه مفاسد عظيمة.

و– لا ينبغي للإنسان إذا سمع قول الرسول ﷺ أن يقول: هل هو واجب أم مستحب؟ لقوله ﷺ: «**فأتوا منه ما استطعتم**» فأنت عبد منقاد لأمر الله ﷻ ورسوله ﷺ ولك اختيار تحاسب وفق اختيارك.

ز- أن ما أمر به النبي ﷺ أو نهى عنه فإنه شريعة سواء كان ذلك في القرآن أو لم يكن فيعمل بالسنة الزائدة على القرآن أمرا ونهيا فالقرآن دل على أن السنة شريعة يجب العمل بها سواء ذكرت في القرآن أم لا.

قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

ح - أن كثرة المسائل سبب للهلاك ولا سيما في الأمور التي لا يمكن الوصول إليها مثل مسائل الغيب كالسؤال عن الكيف في أسماء الله وصفاته وكذلك السؤال عن أهوال يوم القيامة؛ لا تكثر السؤال فيها فتهلك وتكون متنطعا متعمقا لأن كثرة المسائل تسبب التفرقة وتؤدي إلى الهلاك وأما ما يحتاج إليه من الأمور الفقهية فلا حرج من السؤال عنها مع الحاجة لذلك.

ط - أن الأمم السابقة هلكوا بكثرة المساءلة وهلكوا بكثرة الاختلاف على أنبيائهم.

ي - التحذير من الاختلاف على الأنبياء وأن الواجب على المسلم أن يوافق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأن يعتقدهم أئمة وأنهم من عباد الله تعالى أكرمهم الله تعالى بالرسالة وأن خاتمهم محمد رسول الله ﷺ أرسله إلى الثقلين وشريعته هي دين الإسلام الذي ارتضاه الله تعالى لعباده وأن الله لا يقبل من أحد دينا سواه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩].

٢- الفرقة والاختلاف سبب ذهاب الخير:

أخرج البخاري في صحيحه من حديث عبادة بن الصامت ﷺ قال: خرج النبي ﷺ ليخبرنا بليلة القدر فتلاحى رجلان من المسلمين فقال: «**خرجت لأخبركم بليلة القدر، فتلاحى فلانٌ وفلانٌ فَرُفِعَتْ، وعسى أن يكون خيرا لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة**»[(١)].

والمعنى الإجمالي للحديث:

أن رسول الله ﷺ خرج يخبر الصحابة ﷺ في شهر رمضان بتعيين ليلة القدر فتنازع وتخاصم اثنان من الصحابة ﷺ وهما كعب بن مالك ﷺ وعبد الله بن أبي حَدَرْدَ فعند ذلك قال رسول الله ﷺ: «**إني خرجت لأخبركم بليلة القدر، وإنه تلاحى فلان وفلان فرُفِعَتْ، وعسى أن يكون خيرا لكم**» أي: وإن كان عدم الرفع أزيد خيرا وأولى منه لكن في الرفع خير موجود لاستلزامه مزيد من الثواب لكونه سببا لزيادة الاجتهاد في التماسها وإنما حصل ذلك ببركة رسول الله ﷺ ثم قال: «**التمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة**» وفي رواية البخاري: «**التمسوها في السَّبْع والتِّسْع والخمس**» قال الحافظ: قدم السبع على التسع وهو كذا في معظم الروايات إشارة إلى أن رجاءها في السّبع أقوى للاهتمام بتقديمه[(٢)].

وفي الحديث فوائد منها:

أ- فيه دليل على أن المخاصمة مذمومة.

ب- وفيه أن المخاصمة والمعاصي عموما سبب في العقوبة المعنوية وهي الحرمان.

---

(١) البخاري (٢/ ٦٤) برقم (٢٠٢٣).

(٢) راجع رواية الحديث في صحيح البخاري كتاب باب: خوف المؤمن من أن يحبط عمله (٤٩).

ج- فيه دليل على أن المكان الذي يحضره الشيطان ترفع منه البركة والخير، فإذا كان هذا الكلام قيل في خصومة جاء الشيطان فيها فكيف بأماكن المنكرات التي عشش فيها الشيطان وجُوهر فيها بالمعاصي ليلا ونهارا فهي أحق بمحق البركة ورفع الخير وكيف بالبدع التي فرقت الأمة ومزقتها شر ممزق بالتحزب المقيت والبعد عن منهج أهل السنة والجماعة فهذا كله أولى بمحق البركة وذهاب الخير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

٣- أن الفرقة والاختلاف دليل على البعد عن هدي النبي ﷺ:

قال الله تعالى مخاطبا النبي ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيرها: والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفا له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه ﴿وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾ أي: فرقا كأهل الملل والنحل - وهي الأهواء والضلالات - فالله قد برّأ رسوله ﷺ مما هم فيه، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣].

وفي الحديث: «**نحن معاشر الأنبياء أولاد عَلاّت ديننا واحد**».

فهذا هو الصراط المستقيم وهذا ما جاءت به الرسل، من عبادة الله وحده لا شريك له، والتمسك بشريعة الرسول المتأخر، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء، الرسل براء منها كما قال: ﴿لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾ انتهى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٤- التفرقة والاختلاف متوعد أصحابها بالعذاب العظيم:

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيرها: «ينهى هذه الأمة أن تكون كالأمم الماضية في تفرقهم واختلافهم، وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قيام الحجة عليهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، حدثنا أزهر بن عبد الله الهوزني عن أبي عامر عبد الله بن لحي قال: حججنا مع معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فلما قدمنا مكة قام حين صلى صلاة الظهر فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «**إن أهل الكتابيْن افترقوا في دينهم على اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة** - يعني الأهواء - **كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة، وإنه سيخرج من أمتي أقوام تجاري بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه، لا يبقى من عرق ولا مفصل إلا دخله. والله - يا معشر العرب - لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم ﷺ لغيركم من الناس أحرى ألا يقوم به**».

وهكذا رواه أبو داود عن أحمد بن حنبل ومحمد بن يحيى كلاهما عن أبي المغيرة واسمه عبد القدوس ابن الحجاج الشامي به، وقد روي هذا الحديث من طرق» انتهى كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

فالحذر الحذر من الأهواء والضلالات التي تمزق الأمة وتفرقها ويكون الجزاء من جنس العمل فالله توعد أمثال هؤلاء بالعذاب الأليم في الآخرة ما لم يتوبوا ويعودوا إلى الجماعة.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥] ونحو هذا في القرآن: «أمر الله جل ثناؤه المؤمنين بالجماعة، فنهاهم عن الاختلاف والفرقة وأخبرهم إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله»[١].

من أجل ذلك كله فإن الإسلام سلك مسلكا عظيما في سد منافذ الفرقة والاختلاف وصيانة عوامل الوحدة والائتلاف وهذا من محاسن التشريع في الإسلام.

٥- من محاسن الإسلام الدعوة إلى الأخوة الإيمانية والتحذير من الفرقة والاختلاف:

من أهداف التشريع في الإسلام تحقيق العبودية لله رب العالمين القائل في كتابه الكريم: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ولتحقيق هذا الهدف أنزل الله الكتب وأرسل الرسل لهداية عباده ولتحقيق ما يلي:

أ- دعوة الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له وتحريرهم من عبادة غيره من طواغيت وطبيعة.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ب- تعليم الناس منهج السماء بما فيه من عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات ونظم سياسية واجتماعية واقتصادية وتربوية وجهادية وتعليمية ثم وجوب العمل بما تعلّموه وتطبيق ذلك تطبيقاً كاملاً في جميع مرافق الحياة.

---

(١) راجع تفسير الطبري لهذه الآية من سورة آل عمران: ١٠٥.

ج- وفي ذلك التعليم تأديب وتزكية وإصلاح للناس جميعا، لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

فدين الإسلام دين تكافل وتراحم ودين تعاطف وشفقة، دين معاملة وإحسان، دين جماعة يدعو إلى الائتلاف ويحذر من الاختلاف، وقد عمل على ذلك أولوا العزائم أصحاب رسول الله ﷺ فدانت لهم الدنيا، وتحطمت تحت أقدامهم تيجان الجبابرة من أقاصرة وأكاسرة وملكوا أزمّة الأمور ووصفهم رب العزة في كتابه بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

فكانت الشدة منهم على الكافرين المعتدين، وكانت الرحمة والشفقة بينهم مثلا للعادلين والمتأسِّين، وشريعة الإسلام في مجموعها وحدة متماسكة الأطراف مُحْكمة العُرى، تؤلف بين جملة من الحقوق، الأخذ بها في مجموعه أمرٌ لا مندوحة عنه.

فتوحيد الله ﷻ بأسمائه وصفاته وأفعاله وتأليهه وإفراده بكامل العبودية والتقديس كل ذلك جزء من عقيدة المسلم ومن طليعة ما يجب أن يعنى به.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

هذا هو الأمر الأول والحق الأول بالنسبة لخالق الكون ومدبِّره ومرتِّبه بنعمه وأفضاله.

الحق الثاني: ويتعلق بصلاح الجماعة المسلمة وتكوين وحدتها وتنظيم أهدافها وتكفلها الصالح العام وتضافر جهودها لتحقيق الأخوة الإيمانية التي نص عليها الله جل وعلا في قوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقد اوضحت السنة المطهرة مدلول هذا الإخاء وهذا الحق وأهدافه ومدى الأخذ به كمبدأ من مبادئ الدين، في جملة من الأحاديث وفي صور مختلفة فيها سد لمنافذ الفرقة والاختلاف وصون لعوامل الوحدة والائتلاف على النحو التالي:

- **أولا: التوجيه إلى الأخوة الإيمانية عن طريق الترفع عن الظلم وعدم التعدي على الغير والتحذير من الشح والنهي عن الإضرار**: كما صح عن رسول الله ﷺ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشّح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن يسفكوا دماءهم، ويستحلوا محارمهم**»[(١)].

- وعن سعيد سعد بن مالك بن سنانٍ الخُدْري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا ضرر ولا ضرار**»[(٢)].

- **ثانيا: عن طريق التوجيه إلى هذا الحق بالتنويه عن مدى الترابط الإيماني والتكافل في الحقوق:**

- فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله**

(١) أخرجه مسلم (٨/ ١٨) برقم (٦٦٦٨) وأحمد (٣/ ٣٢٣) برقم (١٤٥١٥) والبخاري في الأدب المفرد (٤٨٣).

(٢) حديث حسن: رواه ابن ماجة (٢٣٤١) والدارقطني (٤/ ٢٢٨) ومالك في الموطأ (٢/ ٧٤٦).

إخوانا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يكذبه، ولا يحقره، التقوى هاهنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه»[(١)].

قوله: «لا تحاسدوا» يعني: لا يحسد بعضكم بعضا، والحسد مركوز في طبائع البشر وهو أن الإنسان يكره أن يفوقه أحد من جنسه في شيء من الفضائل فإن تمنى زوال النعمة عن أخيه فهذا فجور في الحسد.

وقوله: «ولا تناجشوا» فسره كثير من العلماء بالنجش في البيع وهو: أن يزيد في السلعة مَنْ لا يريد شراءها إما لنفع البائع لزيادة الثمن له، أو بإضرار المشترى بتكثير الثمن عليه، ويحتمل أن يكون التناجش المنهي عنه في هذا الحديث ما هو أعم من ذلك فإن أهل النجش في اللغة: إثارة الشيء بالمكر والحيلة والمخادعة وحينئذ يكون المعنى لا تتخادعوا ولا يعامل بعضكم بعضا بالمكر والاحتيال وإنما يراد بالمكر والمخادعة إيصال الأذى إلى المسلم.

وقوله: «ولا تباغضوا»: نهي المسلمين عن التباغض بينهم في غير الله بل على أهواء النفوس فإن المسلمين جعلهم الله إخوة، والإخوة يتحابون بينهم ولا يتباغضون، وأما البغض في الله فهو من أوثق عرى الإيمان وليس داخلا في النهي، ولو ظهر لرجل من أخيه شر فأبغضه عليه وكان الرجل معذورا فيه في نفس الأمر أثيب المبغض له وإن عذر أخوه كما قال الفاروق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنا كنا نعرفكم إذ رسول الله ﷺ بين أظهرنا، وإذ ينزل الوحي وإذ ينبئنا الله من أخباركم ألا وإن رسول الله ﷺ قد انطلق به وانقطع الوحي وإنما نعرفكم بما نخبركم، ألا من أظهر منكم لنا خيرا ظننا به خيرا وأحببناه عليه، ومن أظهر منكم شرا ظننا به شرا

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه برقم: (٢٥٦٤).

وأبغضناه عليه، سرائركم بينكم وبين ربكم ﷻ».

وقال الربيع بن خثيم: لو رأيت رجلا يظهر خيرا ويسر شرا أحببته عليه آجرك الله على حبك الخير ولو رأيت رجلا يظهر شرا ويسر خيرا أبغضته عليه آجرك الله على بغضك الشر.

ولما كثر اختلاف الناس في مسائل الدين وكثر تفرقهم كثر بسبب ذلك تباغضهم وتلاعنهم وكل منهم يظهر أنه يبغضه لله، وقد يكون في نفس الأمر معذورا، وقد لا يكون معذورا بل يكون متبعا لهواه مقصرا في البحث عن ما يبغضه عليه فالواجب على المؤمن أن ينصح نفسه ويتحرز في هذا غاية التحرز، وأشكل منه فلا يدخل نفسه فيه خشية أن يقع فيما نهي عنه من البغض المحرم.

- **وهاهنا أمر خفي ينبغي التفطن له** وهو: أن كثيرا من أئمة الدين قد يقول قولا مرجوحا ويكون مجتهدا فيه، مأجورا على اجتهاده فيه، موضوعا عنه خطؤه فيه ولا يكون المنتصر لمقالته تلك بمنزلته في هذه الدرجة لأنه قد لا ينتصر لهذا القول إلا لكون متبوعه قد قاله، بحيث إنه لو قاله غيره من أئمة الدين لما قبله ولا انتصر له ولا والى من وافقه ولا عادى من خالفه وهو مع هذا يظن أنه إنما انتصر للحق بمنزلة متبوعه وليس كذلك فإن متبوعه إنما قصده الانتصار للحق وإن أخطأ في اجتهاده وأما هذا التابع فقد شاب انتصاره لما يظنه الحق إرادة علو متبوعه وظهور كلمته وأنه لا ينسب إلى الخطأ وهذه دسيسة تقدح في قصد الانتصار للحق فافهم هذا فإنه فهم عظيم والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. «ابن رجب» [1].

قوله «ولا تدابروا» التدابر: المصارمة والهجران مأخوذ من أن يولّي الرجل صاحبه دبره ويعرض عنه بوجهه وهو التقاطع.

---

(١) راجع جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص: ٢٦٨) وما بعدها.

وقد نهى النبي ﷺ عن هجران المسلم لأخيه المسلم فوق ثلاث أيام وكل هذا في التقاطع للأمور الدنيوية، فأما لأجل الدين فتجوز الزيادة على الثلاث نص عليه الإمام أحمد واستدل بقصة الثلاثة الذين خُلفوا وأمر النبي ﷺ بهجرانهم لما خاف منهم النفاق، وأباح هجران أهل البدع المغلظة والدعاة إلى الأهواء، وذكر الخطابي أن هجران الوالد لولده والزوج لزوجته وما كان في معنى ذلك تأديبا تجوز الزيادة فيه على الثلاث لأن النبي ﷺ هجر نساءه شهرا.

قوله «ولا يبع بعضكم على بيع بعض» ومعناه: أن يكون قد اشترى منه شيئا فيبذل للمشتري سلعته ليشتريها ويفسخ بيع الأول وجمهور العلماء على أن النهي للتحريم.

وقوله «وكونوا عباد الله إخوانا»: هذا ذكره النبي ﷺ كالتعليل لما تقدم، وفيه إشاره إلى أنهم إذا تركوا التحاسد والتناجش والتباغض والتدابر وبيع بعضهم على بعض كانوا إخوانا. وفيه أمر باكتساب ما يصير المسلمون به إخوانا على الإطلاق وذلك يدخل فيه أداء حقوق المسلم على المسلم من رد السلام وتشميت العاطس وعيادة المريض وتشييع الجنازة وإجابة الدعوة والابتداء بالسلام عند اللقاء والنصح بالغيب والتهادي والمصافحة لأنها تزيد الود.

قال مجاهد: بلغني انه إذا تراءى المتحابان فضحك أحدهما إلى الآخر وتصافحا تحاتت خطاياهما كما يتحات الورق من الشجر فقيل له: إن هذا ليسير من العمل، قال: تقول يسير والله يقول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

وقوله: «المسلم أخو المسلم: لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره» هذا مأخوذ من قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

فإذا كان المؤمنون إخوة، أمروا فيما بينهم بما يوجب تآلف القلوب واجتماعها ونهوا عما يوجب تنافر القلوب واختلافها، وأيضا فإن الأخ من شانه أن يوصل لأخيه النفع ويكف عنه الضرر ومن أعظم الضرر الذي يجب كفه عن الأخ المسلم الظلم وهذا لا يختص بالمسلم بل هو محرم في حق كل أحد.

ومن ذلك: خذلان المسلم لأخيه فإن المؤمن مأمور أن ينصر أخاه كما قال رسول الله ﷺ: «**أنصر اخاك ظالما أومظلوما**» قال: يا رسول الله أنصره مظلوما فكيف أنصره ظالما؟ قال: «**تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه**»(١).

وخرّج أبو داود من حديث أبي طلحة الأنصاري وجابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «**ما من امرئ مسلم يخذل امرءاً مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمته، وينتقص فيه من عرضه؛ إلاّ خذله الله في موضع يحب فيه نصرته، وما من امرئ ينصر مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه، وتنتهك فيه حرمته؛ إلاّ نصره الله في موضع يحب فيه نصرته**»(٢).

ومن ذلك كذب المسلم لأخيه فلا يحل له أن يحدّثه فيكْذِبَه بل لا يُحدّثُه إلا صدقا.

ومن ذلك احتقار المسلم لأخيه المسلم وهو ناشئ عن الكِبر كما قال النبي ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، فقال رجل: إن الرجل يحب أن**

---

(١) أخرجه البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه كتاب الإكراه، باب يمين الرجل لصاحبه إنه أخوه إذا خاف عليه القتل أو نحوه (٩/ ٢٢) برقم (٦٩٥٢) وفي كتاب المظالم والغصب برقم (٢٣١١).

(٢) الطبراني في المعجم الأوسط (٨/ ٢٨٢) وأبو داود «عون المعبود» (١٣/ ١٠٧) وصححه الشيخ الألباني في الجامع الصغير برقم (٨٠٠٢) وفي صحيح الجامع برقم (٥٦٩٠).

يكون ثوبه حسنـًا ونعله حسنـًا، فقال: إن الله جميل يحب الجمال، الكِبر بَطَرُ الحقِّ وغَمْط الناس»[1].

فالمتكبر ينظر إلى نفسه بعين الكمال وإلى غيره بعين النقص فيحتقرهم ويزدريهم ولا يراهم أهلا لأن يقوم بحقوقهم ولا أن يقبل من أحد منهم الحق إذا أورده عليه.

وقوله: «التقوى هاهنا يشير إلى صدره ثلاث مرات» فيه إشارة إلى أن كرم الخلق عند الله بالتقوى، فرُبَّ من يَحقِرُه الناس لضَعْفه وقلة حظه من الدنيا وهو أعظم قدرا عند الله تعالى ممَّن له قدر في الدنيا فإنما الناس يتفاوتون بحسب التقوى كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

قوله: «**بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**» يعني: يكفيه من الشر احتقاره أخيه المسلم، فإنه إنما يحتقر أخاه المسلم لتكبره عليه والكبر من أعظم خصال الشر.

وقوله: «**كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه**» هذا ما كان النبي ﷺ يخطب به في المجامع العظيمة فإنه خطب به في حجة الوداع يوم النحر، ويوم عرفة، واليوم الثاني من أيام التشريق.

وقال: «**إن أموالكم ودماءكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا**»، وفي رواية: فأعادها مرارا ثم رفع رأسه فقال: «**اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟**»

وفي رواية ثم قال: «**ألا لِيُبَلِّغ الشاهد منكم الغائب**».

---

(١) أخرجه الإمام مسلم برقم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وفي رواية للبخاري: «**فإن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم إلا بحقها**»[(١)].

فالمسلم لا يحل له إيصال الأذى لأخيه المسلم بوجه من الوجوه بقول أو فعل بغير حق وقد قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٨].

قال رجل لعمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: اجعل كبير المسلمين عندك أبا وصغيرهم ابنا وأوسطهم أخا فأي أولئك تحب أن تسيء إليه؟!

وقال يحيى بن معاذ الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ليكن حظ المؤمن منك ثلاثة: إن لم تنفعه فلا تضره وإن لم تفرحه فلا تغمه وإن لم تمدحه فلا تذمه».

- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضا قال: قال رسول الله ﷺ: «**من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما، ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد، ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما، سهل الله له به طريقا إلى الجنة، وما جلس قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله، لم يسرع به نسبه**» [(٢)].

---

(١) البخاري كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى برقم (١٧٣٩) من حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وأخرجه مسلم من حديث أبي بكرة في كتاب القسامة برقم (١٦٧٩) ومن حديث ابن عمر في كتاب الإيمان برقم (٦٦) ومن حديث جابر برقم (٦٥) كتاب الإيمان.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٦٩٩) وأحمد (٢/ ٢٥٢) والترمذي (٢٩٤٥) وابن ماجة (٢٢٥).

قوله: «**من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة**» هذا يرجع إلى أن الجزاء من جنس العمل وقد تكاثرت النصوص بهذا المعنى فمن ذلك قول النبي ﷺ: «**إنما يَرْحَمُ الله من عباده الرحماء**»(١).

- والكربة: هي الشدة العظيمة التي توقع صاحبها في الكرْب، وتنفيسها أن يخفّف عنه منها مأخوذ من تنفيس الخِناق كأنه يُرخى له الخناق حتى يأخذ نفْسا، والتفريج أعظم من ذلك وهو أن يزيل عنه الكربة فتفرج عنه كُرْبَتُهُ ويزول همه وغمه فجزاء التنفيس التنفيس وجزاء التفريج التفريج كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: «**المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه، ومَن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته، ومَن فرَّج عن مسلم كربةً، فرج الله عنه كربةً مِن كربات يوم القيامة، ومَن ستر مسلمًا، ستره الله يوم القيامة**»(٢).

وقد جمع بينهما في حديث كعب بن عُجْرَةَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**مَن نَفَّس عن مؤمن كربة من كربه نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته ومن فرّج عن مؤمن كربة فرج الله عنه كُربته**»(٣).

وقوله: «كربة من كرب يوم القيامة» ولم يقل من كرب الدنيا والآخرة كما قيل في التيسير والستر، وقد قيل في مناسبة ذلك: إن الكرب هي الشدائد العظيمة وليس كل واحد يحصل له ذلك في الدنيا بخلاف الإعسار والعورات المحتاجة إلى الستر فإن أحدا لا يكاد يخلو في الدنيا من ذلك، وقيل: إن كُرَب الدنيا بالنسبة إلى كُرَب

---

(١) البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ يعذب الميت ببعض بكاء أهله إذا كان النوح من سنته برقم (١٢٢٤).

(٢) البخاري ومسلم.

(٣) أخرجه الطبراني.

الآخرة كَلا شيءٍ فادَّخَرَ الله تنفيس الكرب عنده لينفِّس به كرب الآخرة.

قوله: «**ومن يَسّر على مُعْسِر يَسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة**» والتيسير على المعسر في الدنيا من جهة المال يكون بأحد أمرين: إما بإنظاره إلى الميسرة وذلك واجب، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

وتارة بالوضع عنه إن كان غريما وإلا فبإعطائه ما يزول به إعساره وكلاهما فضل عظيم.

وقوله: «**ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة**» ومعنى الستر ستر العورات سواء كانت مادية أي بالكسوة أو معنوية كأسراره داخل بيته أو في أهله فيجب ستر ذلك على المسلم وعدم نشره إذا كان لا يجب نشره فأما إن وقع في معصية كالزنا او شرب خمر ولم يكن مجاهرا فالأولى ستره مع النصح له وتحذيره من شؤمها فإذا كان مجاهرا كاذبا متماديا في الشر سيما إذا كان شره متعديا فلا يجوز الستر عليه. فالستر على المسلم فضيلة ندب الإسلام إليها لصيانة المجتمع المسلم وقد روي عن بعض السلف أنه قال: «أدركت قوما لم يكن لهم عيوب فذكروا عيوب الناس فذكر الناس لهم عيوبا، وأدركت قوما لهم عيوب فكفّوا عن عيوب الناس فنُسيت عيوبهم».

فالستر الستر أيها المسلمون فإنه صيانة للفرد والجماعة معا.

قوله: «**والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**» فالقيام بحاجة المسلم من أفضل الأعمال لأنها تدخل السرور على المسلم.

وبعث الحسن البصري قوما من أصحابه في قضاء حاجة لرجل وقال لهم: مروا بثابت البناني فخذوه معكم فأتوا ثابتا فقال: أنا معتكف، فرجعوا إلى الحسن فأخبروه، فقال: قولوا له: يا أعمش أما تعلم أن مشيك في حاجة أخيك المسلم خير لك من حجة بعد حجة؟ فرجعوا إلى ثابت فترك اعتكافه وذهب معهم.

قوله: «**ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهّل الله له به طريقا إلى الجنة**» سلوك الطريق لالتماس العلم يدخل فيه سلوك الطريق الحقيقي وهو المشي بالأقدام إلى مجالس العلماء ويدخل فيه سلوك الطرق المعنوية المؤدية إلى حصول العلم مثل حفظه ودراسته ومذاكرته ومطالعته وكتابته والتفهم له ونحو ذلك من الطرق المعنوية التي يتوصل بها إلى العلم.

وقوله: «**سهّل الله له به طريقا إلى الجنة**» قد يراد بذلك أن الله يسهل له العلم الذي طلبه وسلك طريقه وييسره عليه، فإن العلم طريق موصّل إلى الجنة، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧].

قال بعض السلف: هل من طالب علم فيعان عليه؟

وقد يراد أيضا أن الله ييسر لطالب العلم إذا قصد بطلبه وجه الله الانتفاع به والعمل بمقتضاه، فيكون سببا لهدايته ولدخول الجنة بذلك.

قوله: «**وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله في من عنده**» هذا دليل على استحباب الجلوس في المساجد لتلاوة القرآن ومدارسة العلوم المتعلقة به.

وقد أخبر النبي ﷺ أن جزاء الذين يجلسون في بيت الله يتدارسون كتاب الله أربعة أشياء:

أحدها: تنزل السكينة عليهم: أي الطمأنينة والسعادة وهدوء النفس.

الثاني: غشيان الرحمة؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦].

الثالث: أن الملائكة تحفُّ بهم من فوق رؤوسهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا.

الرابع: أن الله يذكرهم فيمن عنده من الملائكة المقربين.

وهذه الخصال الأربعة لكل مجتمعين على ذكر الله تعالى كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة وأبي سعيد كلاهما عن النبي ﷺ قال: «**إن لأهل ذكر الله أربعا: تنزل عليهم السكينة، وتغشاهم الرحمة، وتحف بهم الملائكة، ويذكرهم الرب في ملأ عنده**»[1].

وذكر الله لعبده: هو ثناؤه عليه في الملأ الأعلى بين ملائكته ومباهاته به وتنويهه بذكره.

قال الربيع بن أنس: «إن الله ذاكر من ذكره وزائد من شكره ومعذب من كفره».

وقوله: «**ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه**» معناه: أن العمل هو الذي يبلغ بالعبد درجات الآخرة كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأحقاف: ١٩].

فمن أبطأ به عمله أن يبلغ به المنازل العالية عند الله تعالى لم يسرع به نسبه فيبلغه تلك الدرجات فإن الله تعالى رتب الجزاء على الأعمال لا على الأنساب، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وقد أمر الله تعالى بالمسارعة إلى رحمته ومغفرته بالأعمال، كما قال: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٧٠٠).

﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «يأمر الله تبارك وتعالى بالصراط فيضرب على جهنم قال: فيمر الناس زمراً على قدر أعمالهم، أوائلهم كلمح البرق (الخاطف)، ثم كمر الريح، ثم كمر الطائر، ثم كأسرع البهائم، ثم كذلك ثم يمر الرجل سعياً، ثم يمر الرجل مشْياً، حتى يمر آخرهم يتلبّط على بطنه فيقول: يا رب لم أبطأت بي؟ فيقول: إنما أبطأ بك عملك!».

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ حين أنزل عليه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]: «**يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئا يابني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئا يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا يافاطمة بنت رسول الله سليني بما شئت لا أغني عنك من الله شيئا**»[(١)].

الشاهد في الحديث أن العطاءات الربانية ارتبطت بالاجتماع في بيت من بيوت الله على مدارسة القرآن فاجتماع الأمة من أسباب نزول العطاءات الربانية والمنح الإلهية.

- ثالثا: التوجيه إلى هذا الحق بتصوير واقع الأخوة الإيمانية والتعريف بطرف من مسالكها:

- عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وشبك بين أصابعه**»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٢٧٥٣) ومسلم (٢٠٦).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٠٢٦) و(٢٩٦٩) ومسلم في صحيحه برقم (٢٥٨٥).

- وفيما أخرجه البخاري ومسلم - رحمهما الله - أيضا في صحيحهما من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»[(١)].

وجاء في الصحيحين أيضا من حديث أبي حمزة أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خادم رسول الله ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[(٢)].

والنفي الوارد في الحديث نفي كمال الإيمان لا نفي صحة الإيمان لأن هذا العمل من باب النصيحة فيكون النفي هنا نفيا لكماله وتمامه لا نفيا لأصله، والحب الوارد في الحديث مقيد بـ«الخير» ففي رواية لهذا الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير».

كما جاء عند ابن ماجة بلفظ: «لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يحب للناس ما يحب لنفسه من الخير»[(٣)].

ففي هذه النصوص توجيه نبوي إلى حق الأخوة الإيمانية والاجتماع، بتصوير واقع الأخوة الإيمانية والتعريف بطرف من مسالكها وشبّه الأمة بالجسد الواحد الذي يَنِمُّ عن الاجتماع وعدم الفرقة.

- رابعا: التوجيه إلى هذا الحق باستدرار العطف والرحمة والحث على الرفق والشفقة:

- أخرج الترمذي بسند صحيح من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم**

(١) البخاري برقم (٦٠١١) ومسلم برقم (٢٥٨٦) واللفظ له.
(٢) البخاري كتاب الإيمان برقم (١٣) ومسلم كتاب الإيمان (٧١).
(٣) صححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيح الترغيب (١١٨٠).

من في السماء، الرحم شُجْنَةٌ من الرحمن فمن وصَلَها وصَلَه الله ومن قطعها قطعه الله»[١].

وفي قوله ﷺ: «**الرحم شجنة من الرحمن**» معنى الرحم: قال ابن فارس: «الراء والحاء والميم» أصل واحد يدل على الرقة والعطف والرأفة، والرحم: علاقة القرابة ثم سميت رحم الأنثى رحما من هذا لأن فيها ما يكون ما يرحم ويُرحم له من ولد.

وعرف ابن سيده والجوهري وغيرهما الرحم بأنه: «القرابة إلا أنهم جعلوا أصله هو رحم المرأة وهو منبت الولد ووعاؤه في البطن»[٢].

وكذا الراغب الأصبهاني قال: «الرحم رحم المرأة ومنه استعير الرحم للقرابة لكونهم خارجين من رحم واحدة»[٣].

إذن فالرحم تطلق على العضو الذي يخلق فيه الجنين وتطلق على الأقارب وهي في هذا الحديث مقرونة بالصلة أو القطيعة وهذه القرينة تصرفها إلى أن المراد بها القرابة، ولذا قال أبو عبيد في معنى قوله ﷺ: «**الرحم شجنة من الرحمن**» يعني: قرابة مشتبكة كاشتباك العروق[٤].

«الرحم شِجنة» أصل الشِّجْنة عروق الشجر المشتبكة والشِّجنة بالتحريك هي واحد الشُّجون وهي طُرُق الأودية ومنه قولهم: «الحديث ذو شجون» أي: يدخُل بعضه في بعض.

---

(١) أخرجه الترمذي وصححه العلامة الألباني في صحيح الترمذي برقم (١٩٢٤)، «وشجنة بالضم وبالفتح رواية ولغة وبالكسر أيضا وأصلها عروق الشجر المشتبكة».

(٢) أنظر: معجم مقاييس اللغة (٢/ ٤٩٨) ولسان العرب (٣/ ١٦١٣).

(٣) المفردات (ص: ١٩١).

(٤) غريب الحديث لأبي عبيد (١/ ٢٠٩).

«من الرحمن» أي: أخذ اسمها من هذا الاسم كما في حديث عبد الرحمن بن عوف في السنن مرفوعاً:

«أنا الرحمن خلقت الرّحم واشتققت لها اسما من اسمي» والمعنى أنها من آثار الرحمة مشتبكة بها فالقاطع لها منقطع من رحمة الله والواصل لها موصول برحمة الله ﷻ.

وقال الإسماعيلي: معنى الحديث أن الرحم اشتق اسمها من اسم الرحمن فلها به علقة، وليس معناه أنها من ذات الله، تعالى الله عن ذلك [1].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: الرحم التي توصل عامّة وخاصّة:

- فالعامة: رحم الدين وتجب مواصلتها بالتوادد والتناصح والعدل والإنصاف والقيام بالحقوق الواجبة والمستحبة.

- وأما الرحم الخاصة: فتزيد بنفقته على أقاربه وتفقد أحوالهم والتغافل عن زلاتهم وتتفاوت مراتب استحقاقهم في ذلك كما في الحديث: «الأقرب فالأقرب».

وقال ابن أبي حمزة: «تكون صلة الرحم بالمال وبالعون على الحاجة وبدفع الضرر وبطلاقة الوجه والدعاء، والمعنى الجامع إيصال ما أمكن من الخير ودفع ما أمكن من الشر. بحسب الطاقة، وهذا إنما يستمر إذا كان أهل الرحم أهل استقامة فإن كانوا كفارا أو فجّارا فمقاطعتهم في الله هي صلتهم بشرط بذل الجهد في وعظهم ثم إعلامهم إذا أصروا أن ذلك يسبب تخلفهم عن الحق ولا يسقُط مع ذلك صلتهم بالدعاء لهم بظهر الغيب أن يعودوا إلى الطريق المثلى».

- خامسا: فإذا قست القلوب والْتَاثَتِ العقول وتحجّرت الضمائر، وتصامت الآذان عن أمثال هذه التوجيهات الرشيدة يكون العلاج عندئذ ترهيبا وتخويفا يكبح

---

(١) ذكره الحافظ في الفتح وراجع تحفة الأحوذي كتاب البر والصلة برقم (١٩٢٤).

جماح النفس، وتوعُّدا وزجرا تتحدد به الغاية ويُعلم به المصير: يُفْصِح عنه قول الرسول ﷺ:

- فيما جاء عند البخاري ومسلم من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لا يرحم الناس لا يرحمه الله عز وجل**»[(١)].

ورواه الإمام أحمد رحمه الله وزاد فيه: «**ومن لا يغفر لا يُغفر له**»[(٢)].

فرحمة العبد للخلق من اكبر الأسباب التي تُنال بها رحمة الله عز وجل، التي من آثارها خيرات الدنيا وخيرات الآخرة، وفقدها من أكبر القواطع والموانع لرحمة الله، والعبد في غاية الضرورة والافتقار إلى رحمة الله تعالى، لا يستغني عنها طرفة عين، وكل ما هو فيه من النعم واندفاع النقم: من رحمة الله، من أراد أن يستبقيها ويستزيد فيها؛ فليعمل جميع الأسباب التي تنال بها رحمته وتجتمع كلها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وهم المحسنون في عبادة الله، المحسنون إلى عباد الله، والإحسان إلى الخلق أثر من آثار رحمة الله بهم.

والرحمة التي يتصف بها العبد نوعان:

النوع الأول: رحمة غريزية؛ قد جبل الله بعض العباد عليها، وجعل في قلوبهم الرأفة والرحمة والحنان على الخلق ففعلوا بمقتضى هذه الرحمة جميع ما يقدرون عليه من نفعهم بحسب استطاعتهم فهم محمودون مثابون على ما قاموا به، معذورون على ما عجزوا عنه، وربما كتب الله لهم بنيّاتهم الصادقة ما عجزت عنه قواهم.

---

(١) البخاري (٩/ ١١٥) برقم (٧٣٧٦) ومسلم (٤/ ١٨٠٩) برقم (٢٣١٩).

(٢) أنظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٢٧٢) برقم (٢٢٥٢) وهو في المسند من حديث أبي سعيد بإسناد صحيح.

فعن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: جاء أعرابي إلى النبيّ ﷺ فقال: تقبّلون الصبيان فما نقبّلهم، فقال النبي ﷺ: «**أوَ أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة؟**»[١]

وعنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أيضا فيما خرّجه البخاري أنها قالت: قبّل رسول الله ﷺ الحسن والحسيْن ابنيْ عليٍّ وعنده الأقرع بن حابس التميمي فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحدا قطّ! فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «**من لا يَرْحم لا يُرحم**»[٢].

النوع الثاني: رحمة يكتسبها العبد بسلوكه كل طريق ووسيلة، تجعل قلبه على هذا الوصف، فيعلم العبد أن هذا الوصف من أجلِّ مكارم الأخلاق وأكملها فيجاهد نفسه على الاتصاف بها، ويعلم ما رتّب الله عليه من الثواب، وما في فوته من حرمان الثواب، فيرغب في فضل ربه، ويسعى بالسبب الذي ينال به ذلك، ويعلم أن الجزاء من جنس العمل، ويعلم أن الأخوة الدينية والمحبة الإيمانية قد عقدها الله وربطها بين المؤمنين، وأمرهم أن يكونوا إخوانا متحابين، وأن ينبذوا كل ما ينافي ذلك من البغضاء والعداوات والتدابر.

فلا يزال العبد يتعرّف الأسباب التي يدرك بها هذا الوصف الجليل ويجتهد في التحقق به، حتى يمتلئ قلبه من الرحمة، والحنان على الخلق، ويا حبذا هذا الخلق الفاضل والوصف الجليل الكامل، وهذه الرحمة التي في القلوب تظهر آثارها على الجوارح واللسان، في السعي في إيصال البِرِّ والخير والمنافع إلى الناس وإزالة الأضرار والمكاره عنهم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٥٩٩٨).

(٢) البخاري برقم (٥٩٩٧) ومسلم برقم (٢٣١٨) من رواية أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعلامة الرحمة الموجودة في قلب العبد: أن يكون محبا لوصول الخير لكافة الخلق عموما وللمؤمنين خصوصا، كارها حصول الشر والضرر عليهم، فبقدر هذه المحبة والكراهة تكون رحمته[١].

- وعن عمرو بن حبيب رضي الله عنه أنه قال لسعيد بن عمرو: أما علمت أن رسول الله ﷺ قال: «**خاب عبدٌ وخسر، لم يجعل الله تعالى في قلبه رحمةً للبشر**»[٢].

- وأخرج الترمذي وقال: حديث حسن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت الصادق المصدوق صاحب هذه الحجرة؛ أبا القاسم ﷺ يقول: «**لا تنزع الرحمة إلا من شقي**»[٣].

- وعند الترمذي وحسنه من حديث أبي صِرْمة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من ضارّ مسلما ضارّه الله، ومن شاقّ مسلما شقّ الله عليه**»[٤].

وهذا في باب المقابلة والجزاء من جس العمل، فمن أدخل على مسلم مضرّة في نفسه أو ماله أو عرضه عامله الله عز وجل من جنس عمله فأدخل عليه من الابتلاءات ما يضره وناهيكم - عباد الله - بمضارّة الله ومُشاقّته - جل شأنه - إنها القصاص العادل قصاص رب العالمين جزاءً وفاقاً: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

---

(١) أنظر: بهجة قلوب الأبرار وقرّة عيون الأخيار للعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله، (ص٢١٩ - ٢٢٢).

(٢) السلسلة الصحيحة (١/ ٨١٨) برقم (٤٥٦).

(٣) رواه الترمذي وقال: حديث حسن وفي بعض النسخ: صحيح، أنظر: صحيح الترغيب برقم (٢٢٦١).

(٤) الترمذي وحسنه وأبو داود وراجع بلوغ المرام برقم (١٤٣٩).

إنها نقمة الله وشديد أخذه فاحذروا نقمته وأخذه: ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

فاتقوا الله عباد الله واعرفوا لله حقه فأفردوه به واعبدوه على هدى وبصيرة واعرفوا للجماعة حقوقها، فارعَوْها حق رعايتها ليكمل لكم الدين ولتكونوا من حزب الله وأوليائه المفلحين.

قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

فحزب الله المصلحون لهم صفات بينتها هذه الآية من سورة المجادلة وهي:

الأولى: الإيمان بالله ﷻ وهو التوحيد الخالص المنافي للشرك.

الثانية: الإيمان باليوم الآخر بما فيه من موت وقبر وبعث وحساب وثواب وعقاب وجنة ونار.

الثالثة: البراءة التامة وعدم الموالاة لمن حاد الله ورسوله وحارب دين الله ﷻ.

الرابعة: الأخوّة الصادقة فيما بينهم تتضح في اجتماعهم على الإيمان بالله واليوم الآخر والبراءة التامة من أعداء الله.

ومن اتصف بهذه الصفات فهؤلاء هم الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان وهؤلاء هم الذين أيدهم الله على أعدائهم وهؤلاء أهل السعادة في الدنيا والآخرة

وهؤلاء أهل الرضوان الذين رضي الله عنهم وأولئك هم حزب الله حقا وأولياؤه المفلحون صدقاً.

وأول من يدخل من حزب الله تعالى - من هذه الأمة - دخولا أوليا لا ريب فيه ولا نزاع النبيُّ ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم بنص القرآن القرآن الكريم فهم الذين: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

فهل بعد هذه الشهادة شهادة؟!

لذلك لا تعجب أخي الكريم - حفظك الله - من خفاء الحق على أهل الزيغ والضلال، فالأعمى لا يرى الشمس في رابعة النهار ليس دونها سحاب لا لخفائها ولكن لأنه أعمى وهكذا من أعمى الله بصائرهم فلا يعقلون آيات الله ولو كانت أكثر من الشمس وضوحا، لذا قال غير واحد من السلف من المفسرين: منْ أغاظه ظهور الصحابة فهو كافر لأن الله تعالى قال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾!!

ثم إن أولى الناس بالصحابة بحزب الله هم الذين يحبونهم فالمرء مع من أحب وإذا تدبرنا القرآن الكريم نجد أن الله تبارك وتعالى صنَّف أهل الحق إلى ثلاثة أصناف وهم: المهاجرون والأنصار ومن تبعهم بإحسان.

قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ

بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ٨-١٠].

فهؤلاء حزب الله المفلحون: المهاجرون والأنصار والذين جاؤوا من بعدهم الذين يستغفرون للمهاجرين والأنصار والذين يدعون الله ألا يجعل في قلوبهم غلا وحقدا وبغضا لأصحاب النبيِّ ﷺ من المهاجرين والأنصار، أما الذين يسبّون المهاجرين والأنصار فهم أهل ضلال وأولئك هم الذين بدلوا قولا غير الذي قيل لهم فتجدهم يكفرون الصحابة ويلعنونهم فأنَّى لهم أن يكونوا حزب الله بل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [المجادلة: ١٩].

لقد قلنا أن ضابط الجماعة الاجتماع على الحق على التوحيد الخالص لله تعالى وتحقيق عبوديته والعمل بأصول أهل السّنّة من الرضا بالقضاء والقدر والإيمان باليوم الآخر وحبّ الصحابة والترضّي عليهم واقتفاء آثارهم وعدم التكفير بالكبيرة وعدم الخروج على ولاة الأمر المسلمين حتى وإن جاروا إلى آخر أصول أهل الحق أهل السنة والجماعة فهم حزب الله حقًّا وهم المفلحون صدقاً.

الوقفة السابعة: أسباب التفرق

بعد أن بينا أهمية الجماعة وفضل الوحدة والائتلاف وخطورة الفرقة والاختلاف لابد من بيان بعض الأسباب التي تؤدي إلى الفرقة والاختلاف حتى تحذرها ومنها:

١- السبب الأول: الجهل:

الجهل هو أكبر عدو للإنسان فهو سبب وقوع الناس في المعاصي والفتن والمصائب والمحن والضعف في الدين لذا اهتم الإسلام بالعلم اهتماما كبيرا فحث على طلبه وبيّن منزلة أهله والثواب العظيم عند الله تعالى، فقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ [المجادلة: ١١].

وذم الله تعالى الجهل وحذر منه وبين أنه سبب إعراض المعرضين عن دعوة الأنبياء والمرسلين وأن الناس لجهلهم كذّبوا بهم، يقول الله تعالى مُخْبرا عن قول نوح لقومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾ [هود: ٢٩].

وذكر سبحانه أن الجهل هو الذي دفع قوم نبي الله لوط عليه السلام لعمل جريمتهم البشعة من اللواط، يقول الله تعالى: ﴿ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴾ [النمل: ٥٥].

والجهل أيضا يدفع الناس للشرك بالله تعالى؛ قال الله تعالى عن موسى عليه السلام وقومه: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

ويعتبر ظهور الجهل وانتشاره من علامات وقوع الساعة:

- فعن عبد الله بن مسعود وأبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «**إن بين يدي الساعة لأياما ينزل فيها الجهل ويرفع فيها العلم ويكثر فيها المرج والهرج: القتل**» (١).

- وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل ويشرب الخمر ويظهر الزنا**»(٢).

فرتب ﷺ على قلّة العلم ورفعه وظهور الجهل وكثرته وقوع المحرمات وانتهاكها ومن أعظمها القتل وهو الهرْج وهذا القتل الذي يقع هو: بين المسلمين بعضهم البعض وهو دليل على تفرقهم ففي الحديث عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن بين يدي الساعة لهرْجا**» قال: قلت يا رسول الله ما الهرْج؟ قال: «**القتل...**» ثم قال: «**ليس بقتل المشركين ولكن يقتل بعضكم بعضا...**»(٣).

وهذا الجهل الذي أخبر عنه رسول الله ﷺ أنه سيقع في الأمة وأنه سيكون من أسباب تفرقها هو جهل بأمرين:

الأول: الجهل بالعلوم الشرعية أي علوم الشريعة.

الثاني: الجهل باللغة العربية.

أ- الجهل بعلوم الشريعة: لما علم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ خطورة الجهل على مستوى الفرد والجماعة حرصوا على تعليم الناس أمور دينهم وعلى تلقين أبنائهم أصول

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٠٦٣) ومسلم برقم (٢٦٧٢).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٨٠) ومسلم برقم (٢٦٧١).

(٣) رواه ابن ماجة برقم (٣٢١٣) وأحمد (٤/ ٣٩١) برقم (١٩٥١٠) والحاكم (٤/ ٤٩٨ - ٥٦٥) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

الاعتقاد وتوصيتهم بالتمسك بالسنة.

- فكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يوصي الناس بتعلم العلم فيقول: «عليك بالعلم قبل أن يقبض وقبضه أن يذهب أهله أو قال أصحابه»[١].

إذ الجهل خطر عظيم يقود الناس إلى البدعة والإحداث في الدين والسير على غير هدى؛

- وخير مثال على ذلك ما حدث وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه حاضر وذلك أن ناسا من أهل الكوفة خرجوا إلى الجبانة يتعبدون واتخذوا مسجدا وبنوا بنيانا فأتاهم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقالوا: مرحبا بك يا أبا عبد الرحمن لقد سرّنا أن تزورنا قال: ما أتيتكم زائرا ولست بالذي أترك حتى يهدم مسجد الجبان إنكم لأهدى من أصحاب رسول الله ﷺ؟! أرأيتم لو أن الناس صنعوا كما صنعتم من كان يجاهد العدو ومن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ومن كان يقيم الحدود ارجعوا فتعلموا ممن هو أعلم منكم وعلِّموا من أنتم أعلم منهم قال واسترجع فما برح حتى قلع أبنيتهم وردهم[٢].

فانظر كيف عزا ابن مسعود رضي الله عنه ما فعلوه إلى الجهل إذ أمرهم بالتعلم فقال: ارجعوا فتعلموا ممن هو أعلم منكم.

- وهذا ما فقهه ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وأن أشد ما يفرق الأمة ويوقع بينها الاختلاف هو الجهل بدينها فقد خلا الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذات يوم فجعل يحدث نفسه كيف تختلف هذه الأمة ودينها واحد؟ فأرسل إلى عبدالله بن عباس رضي الله عنهما فقال: كيف تختلف هذه ونبيها واحد وقبلتها واحدة...

---

(١) رواه اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/ ٨٧).

(٢) شرح السنة للبغوي (١٠/ ٥٤).

- زاد سعيد وكتابها واحد - قال: فقال ابن عباس رضي الله عنهما: يا أمير المؤمنين: إنما أنزل علينا القرآن فقرأناه وعلمنا فيما أنزل وأنه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن ولا يدرون فيما نزل فيكون لكل قوم فيه رأيٌ فإذا كان لكل قوم فيه رأي اختلفوا فإذا اختلفوا اقتتلوا قال: فزجره عمر وانتهره، فانصرف ابن عباس ونظر عمر فيما قال فعرفه فأرسل إليه وقال: أعد عليّ ما قلته فأعاد عليه فعرف عمر قوله وأعجبه.

وما قاله عبد الله بن عباس رضي الله عنه هو الحق فإنه إذا عرف الرجل فيما نزلت الآية أو السورة عرف مخرجها وتأويلها وما قصد بها فلم يتعد ذلك فيها وإذا جهل فيما أنزلت احتمل النظر فيها أو جهل فذهب كل إنسان مذهبا لا يذهب إليه الآخر وليس عندهم من الرسوخ في العلم ما يهديهم إلى الصواب أو يقف بهم دون اقتحام حمى المشكلات فلم يكن بد من الأخذ بمبادئ الرأي أو التأويل بالترخص الذي لا يغني من الحق شيئا إذ لا دليل عليه من الشريعة فضلّوا وأضلّوا[١].

لذلك كان على المجتهد المتصدر للتعليم والفتيا العلم بعلوم الشريعة المتضمن العلم بكتاب الله تعالى وما يلحق به من معرفة أحكامه ومعانيه وفرضه وأدبه وإرشاده وإباحته وناسخه ومنسوخه وعامّه وخاصّه[٢].

وعليه أيضا العلم بالسنة النبوية دراية ورواية وكذلك عليه العلم بالإجماع والقياس، يقول الإمام الشافعي رحمه الله: «على أن ليس لأحد أبدا أن يقول في شيء حل ولا حرم إلا من جهة العلم وجهة العلم الخبر في الكتاب أو السنة أو الإجماع أو القياس...»[٣].

---

(١) أنظر: الاعتصام للشاطبي ص: (٤٥٣).

(٢) أنظر: الرسالة للإمام الشافعي: (٣٩ - ٤١).

(٣) أنظر: الرسالة للشافعي (ص: ٣٩).

فالواجب على العالِمين ألا يقولوا إلا من حيث علموا... وقد تكلم في العلم من لو أمسك عن بعض ما تكلم فيه منه لكان الإمساك أولى به وأقرب من السلامة له إن شاء الله[١].

ومن العلم بعلوم الشريعة العلم بمقاصدها وقواعدها الكلية، ولقد نبّه رسول الله ﷺ إلى ذلك وأخبر أن الأمة ستبتلى بمن يدّعي العلم وليس له حظ منه إلا حفظ النصوص دون فهم لمعانيها واستيعاب لها أومعرفة بمقاصد الشريعة وقواعدها ومتى تصدر - مَنْ هذا شأنه - وترأس حدثت الفتنة ووقعت الفرقة لقول النبي ﷺ واصفا الخوارج: «**إن من ضئضئ هذا قوما يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان**»[٢].

ولقد تربى الصحابة رضي الله عنهم على يد رسول الله ﷺ على تلقي النصوص وفهمها واستيعابها والعمل بها، يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «لقد لبثنا برهة من دهر وأحدنا ليؤتى الإيمان قبل القرآن تنزل السورة على محمد ﷺ فنتعلم حلالها وحرامها وأمرها وزجرها وما ينبغي أن يوقف عنده فيها كما يتعلم أحدكم السورة ولقد رأيت رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان يقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يعرف حلاله ولا حرامه ولا أمره ولا زاجره ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه وينثره نثر الدّقل»[٣].

ومعنى نثر الدّقل: أي نثر التمر الرديء اليابس الذي إذا نثر خرجت له أصوات وتتابع بعضه مع بعض بسرعة كما يكون من الشعر بسرعة دون فهم أو تدبر.

---

(١) انظر: الرسالة للشافعي (ص: ٤١).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٧٤٣٢) ومسلم برقم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك، صحيح.

ومعنى قوله رضي الله عنهما: «تعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن» يدخل فيه عدة معان منها:

١- أنهم كانوا يتعلمون الإيمان المجمل الواجب تعلمه على كل مسلم وجوبا عينيا كما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله والمقصود بذلك أركان الإيمان الستة المشهورة وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره فتتعرف على معانيها إجمالا.

ويشهد لذلك الأثر الصحيح عن جندب البجلي رضي الله عنه قال: «كنا مع رسول الله ﷺ ونحن فتيان حزاورة - أي قاربنا البلوغ - فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانا»[1].

ولذلك يحسن للأم أن تزرع في وليدها منذ نعومة أظافره قواعد الإيمان الكلية من وحدانية الله جل وعلا وربوبيته وما يتعلق بذلك من ملك وتدبير وغيرها من معاني الربوبية، وتزرع فيه معاني الألوهية: من إفراد الرب المنعم الرزاق بالعبادة والذكر وغيرها وتزرع فيه أيضا من معاني توحيد الأسماء والصفات الكلية ببيان بعض الأسماء الحسنى وشيء من معانيها وهكذا...

حتى إذا قرأ سور القرآن وحفظها كان ذلك أدعى لفهمها وأيضا أدعى لتوقيرها وتصديقها.

٢- وقد بيّن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في الأثر السابق المقصود بذلك؛ فقوله رضي الله عنهما: «يؤتى الإيمان قبل القرآن» بمعنى أنه يصدق الله تعالى ويصدق النبيّ ﷺ ويعتقد صحة ما جاء به من الإسلام والإيمان فيطمئن قلبه بذلك قبل ان يقرأ القرآن، لمعرفته بصدق النبيّ ﷺ وبصحة ما جاء به.

---

(١) أخرجه ابن ماجة والخلال بلفظ: «فيعلمنا الإيمان ثم يعلمنا القرآن فازددنا به إيمانا».

وقوله: «وتنزل السورة على محمد ﷺ فنتعلم حلالها وحرامها وأمرها وزاجرها وما ينبغي أن يقف عنده منها كما تعلمون أنتم اليوم القرآن» يعني: أنهم لا يقتصرون على تعلم ألفاظ القرآن بل يتعلمون ما فيه من الحلال والحرام والأمر والنهي ويعملون بذلك كما قال عبد الله بن الحبيب رَحِمَهُ اللَّهُ: «حدّثنا الذين كانوا يعلموننا القرآن أنهم كانوا إذا تعلموا من النبيّ ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعملوا بما فيها قال: فعلمونا القرآن والعلم والعمل جميعا».

وقوله: «لقد رأيت رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان» ينكر على المتأخرين الذين يقرأون القرآن وينثره أحدهم نثر الدَّقَلِ، ويسرع في قراءته ولا يتأمل فيه ولا يدري بأوامره ونواهيه ولا يعمل بما فيه ولا يحل حلاله ولا يحرم حرامه ولا يعمل بمحكمه ولا يؤمن بمتشابهه ولا يقف عند عجائبه وإنما يتعلمه ليأكل به ويقرأ ليحصل على أجره لأجل قراءته فمثل هؤلاء لا يكونون من اهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته.

٣- ومن المعاني الصحيحة أيضا لقول الصحابة «تعلمنا الإيمان قبل القرآن»: تعني الإيمان بالقرآن أولا أنه كتاب معجز وأنه كتاب هداية وتغيير، إذا آمنت بذلك تغيرت معاملتك مع القرآن وتغير حالك وتغير أسلوبك في الأخذ من معين القرآن.

ولهذا نجد أهل السنة والجماعة لما قوي إيمانهم بالقرآن أخذوا نصوصه مأخذ افتقار فلم يصدروا في أقوالهم وأفعالهم إلا من معينه، بخلاف أهل الأهواء والبدع حكموا عقولهم وصرفوا نصوص الوحي لتوافق هذا الهوى.

فيجب على العلماء أن يلمّوا بعلوم الشريعة وأن يعلموا الأمة ذلك ومتى ما اختل هذا الأمر وتصدر الناس ورأسهم من يدّعي العلم وهو في الحقيقة جاهل بشيء مما مضى فهنا تقع الفتنة في الأمة والاختلاف في الدين ويصاب المجتمع المسلم بالفرقة.

ولقد أخبرنا رسول الله ﷺ بوقوع هذا الأمر وحذرنا من ذلك فيما أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا**»[١].

ويزيد الإمام الشاطبي رحمه الله المسألة تفصيلا ويبين أن من أسباب الفرقة: **ترأس الجهلة** وأن الاختلاف المؤدي للفرقة لا يصدر أبدا من العلماء الراسخين في العلم فيقول: «فاعلموا أن الاختلاف في بعض القواعد الكلية لا يقع في العاديات الجارية بين المتبحرين في علم الشريعة العاملين بمواردها ومصادرها ثم يذكر أن الاختلاف المؤدي للفرقة والذي يلقي العداوة بين المسلمين إنما يقع حينما يعتقد الإنسان في نفسه أو يعتقد فيه أنه من أهل العلم والاجتهاد في الدين - ولم يبلغ تلك الدرجة - فيعمل على ذلك ويعد رأيه رأياً وخلافه خلافاً ولكن تارة يكون ذلك في جزء وفرع من الفروع وتارة يكون في كل أو أصل من الأصول الاعتقادية أو من الأصول العملية، فتراه آخذا ببعض جزئيات الشريعة في هدم لكيانها حتى يصير فيها ما ظهر له بادئ رأيه من غير إحاطة بمعانيها ولا رسوخ في فهم مقاصدها وهذا هو المبتدع وعليه نبه الحديث الصحيح»[٢]

ولقد جاء التحذير من ترأس الجهلة في قول النبيّ ﷺ: «**إن من أشراط الساعة أن يلتمس العلم عند الأصاغر**»[٣].

---

(١) البخاري برقم (٧٣٠٧) ومسلم برقم (٢٦٧٣).

(٢) الاعتصام للشاطبي (ص: ٤٤٥).

(٣) رواه الطبراني (٢٢/ ٣٦١) واللائكي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (١/ ٨٥) والهروي في«أم الكلام» (٥/ ٧٥) من حديث أبي أمية الجمحي رضي الله عنه قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٤٠): رواه الطبراني في «الأوسط» و«الكبير» وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف، قال الألباني في =

والتماس العلم عند الأصاغر لا يكون إلا بترأسهم وتصديهم للفتيا وذهاب العلماء الراسخين أو تنحيتهم من جهة أخرى[١].

- ويقول الفاروق رضي الله عنه: «ألا إن الناس لم يزالوا بخير ما أتاهم العلم عن أكابرهم»[٢].

وقال عمر رضي الله عنه أيضا: «قد علمت متى صلاح الناس ومتى فسادهم: إذا جاء الفقه من قبل الصغير استعصى عليه الكبير وإذا جاء الفقه من قبل الكبير تابعه الصغير فاهتديا»[٣].

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ما يزال الناس بخير ما أتاهم العلم من أصحاب رسول الله ﷺ ومن أكابرهم فإذا جاءهم العلم من قبل أصاغرهم فذلك حين هلكوا»[٤].

وليس المراد هنا بالأصاغر صغار السن فقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستشير الصغار وكان القراء أهل مشورته كهولا وشبانا[٥].

=

«السلسلة الصحيحة» (٦٩٥): وهذا إسناد جيد لأن حديث ابن لهيعة صحيح إذا كان من رواية أحد العبادلة عنه وابن المبارك منهم وصححه في «صحيح الجامع» (٢٢٠٧).

(١) أنظر: الاعتصام للشاطبي (ص: ٤٤٦).

(٢) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١/ ٦١٥) واللائكي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/ ٨٤).

(٣) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١/ ٦١٥).

(٤) اللائكي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/ ٨٤) وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١/ ٦١٧).

(٥) أنظر: الاعتصام للشاطبي (ص٤٤٦) وجامع بيان العلم (١/ ٦١٩).

ولكن الجهلة الذين يقولون برأيهم وبغير فقه في الكتاب والسنة فيضلون ويُضلون وأهل البدع أصاغر في العلم[١].

ولقد جاءت نصوص اخرى تحذر من ترأس هؤلاء الجهلة وتصدرهم لقيادة الأمة إذ بذلك تجتلب المحن والفتن على المسلمين ففي الحديث الذي خرجه ابن ماجة وأحمد والحاكم من رواية أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «سيأتي على الناس زمان سنوات خداعات: يصدق فيها الكاذب ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن ويُخوّن فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة. قيل وما الرويبضة؟ قال: الرجل التافه ينطق في أمر العامة»[٢].

إن ترأس هؤلاء الأصاغر إضاعة للأمانة مؤذن بقرب قيام الساعة فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ حينما سأله أعرابي: متى الساعة؟ قال ﷺ: «**فإذا ضُيّعت الأمانة فانتظر الساعة**» قال: وكيف إضاعتها؟ قال: «**إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**» [٣].

يقول الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن إسناد الأمر إلى غير أهله إنما يكون عند غلبة الجهل ورفع العلم وذلك من جملة الأشراط ومقتضاه أن العلم ما دام قائما ففي الأمر فسحة وكأن المصنف أشار إلى أن العلم إنما يؤخذ عن الأكابر» [٤].

---

(١) أنظر: «الاعتصام» للشاطبي (ص٤٤٦) «وذمّ الكلام» للهروي (٥/ ٧٦) و«سلسلة الأحاديث الصحيحة» للألباني (٢/ ٣١٠).

(٢) ابن ماجة (٤٠٣٦) وأحمد (٢/ ٢٩١) (٧٨٩٩) والحاكم (٤/ ٥١٢) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وقال ابن كثير في «نهاية البداية والنهاية» (١/ ٢١٤): إسناده جيد وقال أحمد شاكر في «المسند» (١٦/ ١٩٤): إسناده صحيح وقال الألباني في «صحيح سنن ابن ماجة»: صحيح.

(٣) أخرجه البخاري برقم (٥٩).

(٤) الفتح: (١/ ١٤٣).

وما حدثت الفتنة في الأمة ودبت الفرقة إلا حينما تصدر مثل هؤلاء الناس وقادوهم وهذا ما حدث في الفتنة على الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ وهذا كان وصف الخارجين عليه المقدمين على قتله، فقد كانوا من الأعراب ومن سفهاء الناس وعامتهم.

ولما خرج سعد بن أبي وقاص ﷺ إلى الخارجين على عثمان ﷺ وعثمان محصور، فرأى سعد ﷺ رؤساءهم صفق بيديه إحداهما على الأخرى ثم استرجع ثم أظهر الكلام فقال: «والله إن أمرا هؤلاء رؤساؤه لأمر سوء» [١].

وصدق ﷺ وهل أسوأ من قتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ والذي نتج عن قتله اندلاع الفتن وفشو الفرقة في الأمة الإسلامية.

والناظر لأحوال أهل البدع ورؤسائهم المفرقين للأمة شِيعاً، يجدهم بعيدين عن استيعاب علوم الشريعة جاهلين بفهم معانيها ومعرفة قواعدها ومقاصدها معرضين عن تتبع سنة رسول الله ﷺ وسنة الصحابة ﷺ وهذا ما أوقعهم في الاختلاف والفرقة[٢].

ويُبوّب أبو عمر يوسف بن عبد البر رحمه الله فيمن تأول القرآن وتدبره وهو جاهل بالسنة ثم يقول: أهل البدع أجمع أضربوا عن السنة وتأولوا الكتاب على غير ما بيَّنَت السنة فضلّوا وأضَلّوا نعوذ بالله من الخذلان ونسأله التوفيق والعصمة برحمته[٣].

لذلك يوصي أبو الدرداء ﷺ هذه الوصية العظيمة فيقول: «تعلموا العلم قبل أن يقبض العلم، وقبضه أن يُذهب بأصحابه، العالم والمتعلم شريكان في الخير،

---

(١) أنظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ٧٢).

(٢) أنظر: «خلق أفعال العباد» للبخاري (ص: ٧٦).

(٣) «جامع بيان العلم» (٢/ ١١٩٩) وانظر: «ميزان الاعتدال في نقد الرجال» للذهبي (٢/ ٢٣).

وسائر الناس لا خير فيهم، إن أغنى الناس رجل عالم افتقر إلى علمه، فنفع من افتقر إليه، وإن استُغْنِي عن علمه نفع نفسه بالعلم الذي وضع الله ﷻ عنده، فمالي أرى علماءكم يموتون، وجهالكم لا يتعلمون، ولقد خشيت أن يذهب الأول ولا يتعلم الآخر، ولو أن العالم طلب العلم لازداد علماً، وما نقص العلم شيئاً، ولو أن الجاهل طلب العلم لوجد العلم قائماً، فمالي أراكم شباعاً من الطعام، جياعاً من العلم؟»[١]

تنبيهات هامة:

١- إن من الجهل: عدم العمل بالعلم، ولقد ذم الله تعالى علماء السوء الذين يقولون ما لا يعملون، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤].

يقول أبو الدرداء رضي الله عنه: «لا تكون تقياً حتى تكون عالما ولا تكون بالعلم جميلا حتى تكون به عاملا»[٢].

٢- إن من الجهل: عدم فهم الدليل ووضعه في غير موضعه وهذا نتيجة قصور العلم لذلك وصف رسول الله ﷺ الخوارج بأنهم: «**يقرؤون القرآن لا يجاوز حلوقهم**»[٣].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وكانت البدع الأولى مثل «بدعة الخوارج» إنما هي من سوء فهمهم للقرآن لم يقصدوا معارضته لكن فهموا منه

---

(١) أنظر: جامع بيان العلم لابن عبد البر: (١/ ٦٠٢).

(٢) أنظر: جامع بيان العلم لابن عبد البر: (١/ ٦٩٨).

(٣) البخاري (٦٩٣١) ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

ما لم يدل عليه»[١].

٣- إن من الجهل: المنازعة في المسألة قبل استكمال العلم وإحكامه وجمع حواشيه وأطرافه فيظن المسلم أنه بقراءته للقرآن قد استكمل العلم فيذهب للمنازعة وإنكار ما يجهله فلقد أنكرت أم يعقوب على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لعنه للواشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله قالت له: ما هذا؟ قال: ومالي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ في كتاب الله، قالت: لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدته، فقال: والله لئن قرأتيه لقد وجدتيه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧][٢].

لذلك قال الرسول ﷺ: «**ما عرفتم منه فاعملوا وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه**»[٣]، ولم يقل ﷺ نازعوا فيه أو اعملوا برأيكم أو ردوا ما جهلتم.

٤- أن من الجهل: أن ينكر الإنسان ما يجهله وما غاب عن علمه خاصة إذا كان مع المخالف فيقع منه التكذيب ببعض الحق فيؤدي ذلك إلى الاختلاف والنزاع[٤].

٥- إن من الجهل: الانشغال بالعلوم الدنيوية على حساب تعلمه أمور دينه الأساسية وهذا يؤدي إلى الوقوع في البدع ونشرها إذ لا حصانة لديه من العلم الشرعي الصحيح.

٦- إن من الجهل: تجزئة الشريعة والأخذ ببعض النصوص بدون بعض أو الزعم بالاستغناء بالقرآن الكريم عن السنة النبوية.

---

(١) أنظر: الفتاوى (٣/ ٢٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٣٩) ومسلم (٢١٢٥).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١٨١) (٦٧٠٢) وصححه الألباني في شرح الطحاوية (ص: ٢١٨).

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ١٥١).

٧- إن من الجهل: الجهل باللغة العربية لغة القرآن فهذا أدى إلى عدم فهم القرآن والسنة مما كان له أكبر الأثر في المنازعات والخصومات في الدين وأدى ذلك إلى تمزيق الأمة المسلمة.

٢- السبب الثاني: الابتداع وعدم الاتباع:

إن من أعظم أسباب تمزق الأمة وتفرقها: الابتداع في دين الله تعالى إذ لو فتح الباب لكل إنسان أن يقول في الدين برأيه وأن يُحدث في الشرع ما يستحسنه بذوقه لتفرقت سبل الضلالات بالأمة المسلمة - وهي الآن كذلك إلا من رحم الله وعصم - لذا نُهينا عن اتباع السبل وأمرنا باتباع الصراط المستقيم؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وحذّر الرسول ﷺ من الإحداث في الدّين فيقول: «**إياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة**»[(١)].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]. قال قتادة رحمه الله «يعني أهل البدع»[(٢)].

ولقد قال الرسول الكريم ﷺ: «**مَنْ أحدَث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ**» أي: مردود عليه غير مقبول لما في هذا الإحداث من خطر بالغ على الدين[(٣)].

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه وقال ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢/ ١١٦٤): ثابت صحيح وحسنه البغوي في شرح السنة: (١/ ١٨١).

(٢) أنظر: الاعتصام للشاطبي (ص: ٤٣).

(٣) البخاري (٢٥٩٧) ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

فالنصر والتمكين والسعادة والعز لا سبيل إلى ذلك كله إلا باتباع القرآن الكريم وسنة النبيّ الكريم ﷺ بفهم الصحابة الغر المحجلين رضي الله عنهم.

٣- السبب الثالث: الغلو في الدين

الإسلام دين الوسطية والاعتدال، والوسطية حسنة بين سيئتين بين إفراط وتفريط؛ قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقال الله تعالى آمرا بالاستقامة والاعتدال ناهيا عن الغلو والطغيان: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود: ١١٢].

وحذرنا الرسول الأمين ﷺ من الغلو ومجاوزة الحد المشروع لنا فقال ﷺ: «**إياكم والغلو في الدين، فإنما أَهْلَكَ من كان قبْلكم الغلو في الدين**»[(١)].

ومن الغلو التعصب المذهبي والتقليد للرجال وتقديم أقوالهم على قول الله تعالى ورسوله ﷺ.

٤- السبب الرابع: حب الدنيا وإيثارها:

من أسباب الفرقة حب الدنيا وإيثارها والحرص على مناصبها وسلطانها، لذلك جاء التحذير الشديد من الرسول الكريم ﷺ لما سمعت الأنصار بقدوم مال من البَحرَيْن تعرضوا لرسول الله ﷺ بعد صلاة الفجر فتبسم ﷺ ثم قال: «**أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين فقالوا أجل يا رسول الله قال فأبشروا وأملوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى عليكم أن تبسط الدنيا**

---

(١) النسائي (٥/ ٢٧٨) وابن ماجة (٢/ ١٠٠٨) وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٢/ ٦٤٠).

عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم» وفي رواية: «**وتلهيكم كما ألهتهم**»[١].

فمن أعظم أسباب الفرقة والتنازع حب الدنيا وإيثارها مما يؤدي إلى التنافس من أجل الشهوات وهذا من أهم وأعظم أسباب الهلاك والعياذ بالله رب العالمين.

٥- السبب الخامس: الخروج عن طاعة أولي الأمر (العلماء والأمراء):

من أهم أسباب التفرق الخروج عن طاعة أولي الأمر؛ لذا يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩].

والآية عامة في كل أولي الأمر من العلماء والأمراء يقول العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ مرجحا أن المراد بأولي الأمر: العلماء والأمراء: «والقولان ثابتان عند الصحابة في تفسير الآية والصحيح أنها متناولة للمعنيين جميعا، فإن العلماء والأمراء ولاة الأمر الذي بعث الله به رسوله فإن العلماء ولاته حفظا وبيانا وذبّاً عنه، وردا على من ألحد فيه وزاغ عنه والأمراء ولاته قياما وعناية وجهادا وإلزاما للناس به، وأخذهم على يد من خرج عنه وهذان الصنفان هما الناس وسائر النوع الإنساني تبع لهما ورعية»[٢].

ومتى ما اختل هذا الميزان وقعت الفرقة في الأمة ودبّ الضعف في كيانها.

إن الخروج عن طاعة العلماء الربانيين وترك مشورتهم مفسد للدنيا والآخرة ولا يعني هذا تقديسهم أو التعصب لأقوالهم ليس هذا إطلاقا بل متى ما عارض قولهم قول الله ورسوله رُدَّ ولم يُقبل فقولهم معتبر ورأيهم مُتّبع لأنهم يتّبعون ما جاء من ربهم ويبينونه للناس؛ يقول الإمام أحمد بن حنبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واصفا العلماء:

---

(١) البخاري (٦٤٢٥) ومسلم (٢٩٦١).

(٢) أنظر: الرسالة التبوكية (ص: ٥٠).

«الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون مَن ضَلّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويُبصّرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة وأطلقوا عنان الفتنة»[١].

كما أن الخروج عن طاعة الأمراء مفسد للدنيا وناشر للفتن وطاعتهم واجبة في المعروف فإذا أمروا بمعصية فلا سمع ولا طاعة وننصح لهم فيما بيننا وبينهم وندعوا لهم بخير؛ قال رسول الله ﷺ: «**من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني، وإنما الإمام جُنة يُقاتل من ورائه ويُتقى به، فإن أمر بتقوى الله وعدل فإن له بذلك أجرا، وإن قال بغيره فإنّ عليه منه**»[٢]. قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يجوز الخروج على الخلفاء بمجرد الظلم أو الفسق ما لم يغيروا شيئا من قواعد الإسلام»[٣].

كما لا يجوز التشنيع على ولاة الأمر والتقول عليهم وتأليب الناس ضدهم وتتبع زلاتهم والاحتجاج بها لأن هذا كله من أعظم أسباب التفرق.

- قال رسول الله ﷺ: «**ستكون فتنة صماء بكماء عمياء مَنْ أشرف لها استشرفت له وإشراف اللسان فيها كوقوع السيف**»[٤].

---

(١) أنظر: «الرد على الجهمية والزنادقة» للإمام أحمد بن حنبل (ص: ٨٥).

(٢) البخاري برقم (٢٩٥٧).

(٣) شرح صحيح مسلم (١٢/ ٢٤٣).

(٤) رواه أبو داود (٤٢٦٤) والطبراني في «الأوسط» (٨٧١٧) وضعفه الألباني وقال ابن حجر في «هداية الرواة» فيه عبد الرحمن بن البيلماني.

- بل قال النبيّ ﷺ: «**من خرج عن الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع**»[١].

ومعلوم أن الصبر على حاكم غشوم خير من فتنة تدوم.

وبعد هذا العرض لأهمية الجماعة وخطورة الفرقة ما أحوجنا إلى التمسك بكتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ بفهم الصحابة رضي الله عنهم ففي ذلك جمع الكلمة ووحدة الصف وتحقيق النصر والتمكين، فالجماعة رحمة والفرقة عذاب

ومع الوقفة الأخيرة وعمونها: صور رائعة للأخوة الصادقة:

(١) رواه أبو داود (٤٧٥٨) والترمذي (٢٨٦٣) وأحمد (٥/ ٣٤٤) (٢٢٩٦١) وقال الترمذي: حسن صحيح غريب وقال ابن الملقن في «البدر المنير» (٨/ ٥٢٧) صحيح، وصححه الألباني.

الوقفة الثامنة:
صور رائعة للأخوة الصادقة

الأخوة الإيمانية الصادقة من أوثق عرى الإيمان، وقد ثبتت رابطة الأخوة بين المؤمنين بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

فهي رابطة عقدت بعقد الله سبحانه وتعالى.

ويصف الله تعالى حال المؤمنين الصادقين والمؤمنات الصادقات بقوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

وهذه الرابطة من أجل وأعظم الروابط، وخلافها من الروابط البعيدة عن الإسلام تصبح وبالاً على أصحابها في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

فما أجمل رابطة الأخوة بين المؤمنين، ولله درّ القائل:

يـاأخي المـسلم في كـل مكـان وبلـد ** أنت مني وأنا منـك كـروح في جـسد

وقد شبه الرسول ﷺ الأخوة الإيمانية بالجسد الواحد فقال: «**مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمى**»[1].

فهي فوق أخوة النسب والقبيلة والوطن، تسمو عليها وترتقي لتلتقي على نفحة الوحي السماوية، وهي منّة امتن الله بها على المسلمين فقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم

(١) أخرجه مسلم برقم: (٤٦٨٥).

بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وهذه الرابطة لها فضل عظيم، فمن فضلها:

١) أنها سبب لمحبة الله تعالى لعبده.

* جاء عن النبي ﷺ: «**أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى فأرصد الله له على مَدْرَجَته ملَكاً فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أُريد أخاً لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تَرُبهَا عليه؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله ﷻ قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه**»[(١)].

* وعن أبي إدريس الخولاني قال: دخلت مسجد دمشق فإذا فتى شاب برّاق الثنايا، وإذا الناس معه إذا اختلفوا في شئ أسندوا إليه وصدروا عن قوله، فسألت عنه فقيل: هذا معاذ بن جبل، فلما كان الغدو هجّرت فوجدته قد سبقني بالتهجير، ووجدته يصلي، قال: فانتظرته حتى قضى صلاته ثم جئته من قبل وجهه فسلمت عليه ثم قلت: والله إني لأحبك في الله، فقال: آلله؟ فقلت: آلله، فقال: آلله؟ فقلت: آلله، فقال: آلله؟ فقلت: آلله، قال فأخذ بحبوة ردائي فجبذني إليه وقال: أبشر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تبارك وتعالى: وجبت محبتي للمتحابين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين فيّ والمتباذلين فيّ**»[(٢)].

---

(١) رواه مسلم برقم (٤٦٥٦)، وقال النووي: المدرجة بفتح الميم والراء هي الطريق... قوله «لك من نعمة تربها» أي تقوم بإصلاحها.

(٢) رواه أحمد ومالك وهو صحيح.

٢) أن المتحابين في الله في ظل العرش يوم القيامة:

- فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي**»(١).

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه**»(٢).

٣) أن المتحابين في الله يغبطهم النبيون والشهداء:

قال رسول الله ﷺ: «**إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى**»، قالوا: يارسول الله تخبرنا من هم؟ قال: «**هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فوالله إن وجوههم لنور وإنهم على نور، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس، وقرأ هذه الآية: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]**»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٢٥٦٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢/ ١٤٤/ ١٧٤) ومسلم برقم: (١٧١٢).

(٣) أبو داود برقم: (٣٥٢٧) وصححه الشيخ الألباني في صحيح أبي داود.

٤) أن الأخوة الإيمانية طريق لحلاوة الإيمان واستكمال عراه

قال رسول الله ﷺ: «**من أعطي لله ومنع لله وأحب لله وأبغض لله فقد استكمل الإيمان**»[١].

ويقول ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**»[٢].

ويقول الرسول ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[٣].

٥) أن الأخوة الإيمانية طريق إلى الجنة:

قال الرسول الكريم ﷺ: «**لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شئ إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**»[٤].

٦) أن الأخوة الإيمانية سبيل إلى ذهاب الشحناء والغل:

قال ﷺ: «**تصافحوا يذهب الغل، وتهادوا تحابوا وتذهب الشحناء**»[٥].

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٤٤٠) والترمذي (٢٥٢١) وحسنه، وحسنه الشيخ الألباني أيضا من حديث معاذ بن أنس.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الإيمان رقم (١٦) ومسلم رقم (٤٣).

(٣) البخاري كتاب الإيمان برقم: (١)، ومسلم كتاب الطهارة برقم: (٢).

(٤) أخرجه مسلم كتاب الإيمان برقم: (٥٤).

(٥) رواه مالك كتاب الجامع باب حسن الخلق برقم: (١٦٨٥)، وهو حسن.

وإليك صوراً رائعة للأخوة الصادقة:

*** الصورة الأولى:**

حب الرسول ﷺ لأبي بكر الصديق رضي الله عنه:

* روى البخاري رحمه الله من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خطب النبي ﷺ فقال: «**إن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله**» فبكى أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقلت في نفسي: ما يبكي هذا الشيخ؟ إن كان الله خير عبدا بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله، فكان رسول الله ﷺ هو العبد، وكان أبو بكر أعلمنا، قال: «**يا أبا بكر لا تبك، إن أمن الناس علي في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً من أمتي لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سد إلا باب أبي بكر**»[(١)].

* **وروى البخاري** عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته، فقال النبي ﷺ: «**أما صاحبكم فقد غامر**» فسلم وقال: إني كان بيني وبين ابن الخطاب شئ فأسرعت إليه ثم ندمت فسألته أن يغفر لي فأبى علي فأقبلت إليك، فقال: «**يغفر الله لك ياأبا بكر**» ثلاثاً، ثم إن عمر ندم فأتى منزل أبي بكر فسأل: أثم أبو بكر؟ فقالوا: لا، فأتى النبي ﷺ فجعل وجه النبي ﷺ يتمعر حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه فقال: يارسول الله والله أنا كنت أظلم، مرتين، فقال النبي ﷺ: «**إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي، مرتين**» فما أوذي بعدها [(٢)].

---

(١) البخاري برقم: (٤٦٦، ٣٦٥٤).

(٢) ومعنى غامر: أي خاصم، والمعنى دخل في غمرة الخصومة.

* **وأخرج البخاري في صحيحه** من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: لقل يوم كان يأتي على النبي ﷺ إلا يأتي فيه بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، فلما أذن له في الخروج إلى المدينة لم يرعنا إلا وقد أتانا ظهراً فخبر به أبو بكر فقال: ما جاءنا النبي ﷺ في هذه الساعة إلا لأمر حدث، فلما دخل عليه قال لأبي بكر: «**أخرج من عندك**» قال: يارسول الله إنما هما ابنتاي، يعني عائشة وأسماء، قال: «**أشعرت أنه قد أذن لي في الخروج**» قال: الصحبة يارسول الله؟ قال: «الصحبة» (زاد ابن اسحاق في روايته «قالت عائشة: فرأيت أبا بكر يبكي، وما كنت أحسب أن أحدا يبكي من الفرح»)[1]

* وذكر الحاكم في المستدرك وصحح اسناده عن محمد بن سيرين قال: ذُكر رجال على عهد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فكأنهم فضلوا عمر على أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: فبلغ ذلك عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: لليلة من أبي بكر خير من آل عمر، وليوم من أبي بكر خير من آل عمر، لقد خرج رسول الله ﷺ لينطلق إلى الغار ومعه أبو بكر فجعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه حتى فطن له رسول الله ﷺ فقال: «**ياأبا بكر مالك تمشي ساعة بين يدي وساعة خلفي؟**» فقال: يارسول الله أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك؛ فقال: «**ياأبا بكر لو كان شئ أحببت أن يكون بك دوني؟**» قال: نعم والذي بعثك بالحق ما كانت لتكون من ملمة إلا أن تكون بي دونك، فلما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر: مكانك يارسول الله حتى أستبرئ لك الغار، فدخل واستبرأه حتى إذا كان في أعلاه ذكر أنه لم يستبرئ الحجرة فدخل واستبرأ، ثم قال: انزل يارسول الله، فنزل.

فقال عمر: «والذي نفسي بيده لتلك الليلة خير من آل عمر».

---

(١) البخاري برقم: (٢١٣٨).

* **الصورة الثانية**: سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما:

أخرج البخاري في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قدم علينا عبد الرحمن بن عوف وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع وكان كثير المال، فقال سعد: قد علمت الأنصار أني من أكثرها مالاً سأقسم مالي بيني وبينك شطرين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فأطلقها حتى إذا حلّت تزوجتها. فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك. فلم يرجع يومئذ حتى أفضل شيئاً من سمن وأقط، فلم يلبث إلا يسيراً حتى جاء رسول الله ﷺ وعليه وضر من صفرة، فقال له رسول الله ﷺ: «**مهْيَمْ**» قال: تزوجت امرأة من الأنصار فقال: «**ما سقت إليها**» قال: وزن نواة من ذهب أو نواة من ذهب، فقال: «**أوْلِمْ ولو بشاة**»[1].

هكذا كان الحب في الله تعالى، والأخوة الإيمانية الصادقة بين الإيثار من جانب سعد والعفة من جانب عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما.

* **الصورة الثالثة: إيثار صادق:**

روى القرطبي رحمه الله في تفسيرة: عن حذيفة العدوي قال: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي - ومعي شئ من الماء - وأنا أقول إن كان به رمق سقيته، فإذا أنا به فقلت له: أسقيك؟ فأشار برأسه أن نعم، فإذا أنا برجل يقول: آه، آه، فأشار إليَّ ابن عمي أن انطلق إليه، فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: أسقيك؟ فأشار أن نعم، فسمع آخر يقول: آه آه فأشار هشام أن انطلق إليه، فجئته فإذا هو قد مات، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات.

حقاً ما أجمل الأخوة الإيمانية الصادقة فالجماعة رحمة والفرقة عذاب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) البخاري: (١٩٤٤)، ومسلم: (١٤٢٧) - ومعنى «مهيم»: ما حالك؟.

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

المقدمة ٣

الوقفة الأولى: الأمر بالجماعة والنهي عن الفرقة ٥

الوقفة الثانية: كلمة التوحيد أساس الاجتماع ٨

الوقفة الثالثة: نواقض كلمة التوحيد ١٢

الوقفة الرابعة: السنة المطهرة والحث على الجماعة ٣٢

الوقفة الخامسة: أهل السنة وضوابط الاجتماع ٣٨

الوقفة السادسة: خطورة الفرقة ٦٩

الوقفة السابعة: أسباب الاختلاف ١٠٢

الوقفة الثامنة: صور رائعة للأخوة الصادقة ١٢٠